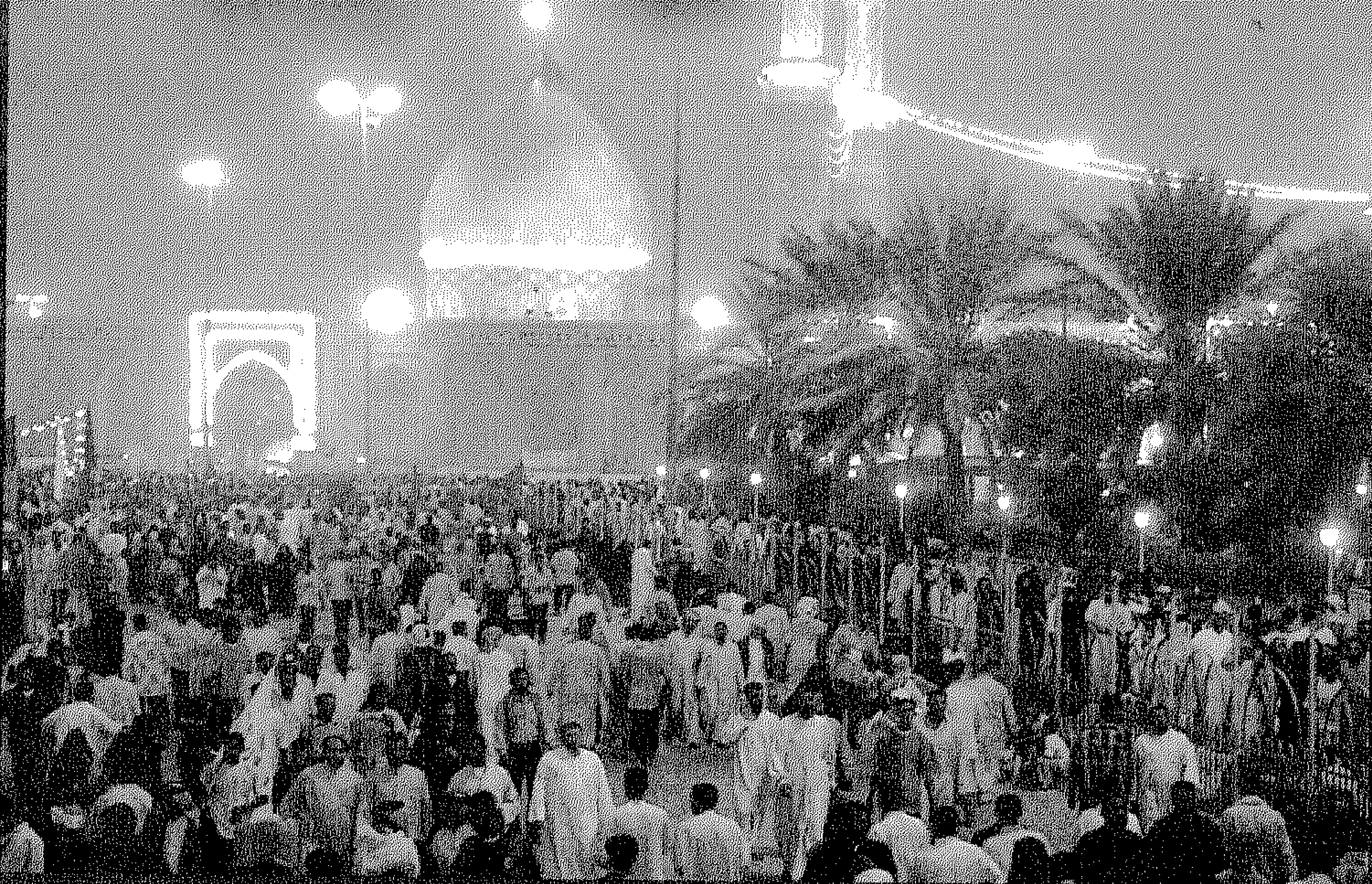
في رحاب آل البيت



دكتورة / هالة أحمد زكى

- الحسين .. سيداً وشهيداً وحبيباً
- السيدة نفيسة .. راحة القلب على أعتابك
- السيدة زينب .. الله لن يخذلنا أبداً
- الإمام الشافعى .. رسالة حب إلى الطير المسافر
- الشقيقان .. سكينة وعلى
- فى مصر .. البحث عن الصبر والأمان

مكتبة مدبولى

فى رحاب آل البيت

مكتبة مدبولى

العنوان : ٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة

تليفون : ٥٧٥٦٤٢١ ـ **فاكس :** ٥٧٥٢٨٥٤

البريد الإلكترونى :

WWW.madboulybooks.cominfo@madbo ulybooks . com

الكتاب : فى رحاب آل البيت

المؤلفة : د. هالة أحمد زكى

إخراج وتنفيذ : محمدمهابه

عدسة : محمد أبو العينين

رقم الإيداع : ٢٢١٤٤ / ٢٠٠٥

الترقيم الدولى : x - 600 - 208 - 977

الطبعة الأولى : ٢٠٠٦م

عربية للطباعة والنشر

العنوان : ٧& ١٠ شارع السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين

تليفون : ٣٢٥٦٠٩٨ـ٣٢٥١٠٤٣ـ فاكس : ٣٢٩١٤٩٧

دكتورة. هالة أحمد زكى

فى رحاب آل البيت

- الحسين.. سيداً وشهيداً وحبيباً
- السيدة نفيسة.. راحة القلب على أعتابك
- السيدة زينب.. الله لن يخذلنا أبداً
- الشقيقان سكينة وعلى فى مصر.. البحث عن الصبر
- والأمان الإمام الشافعى.. رسالة حب إلى الطير المسافر

الناشر
مكتبة مدبولى
2006

المحتويات

الموضوع

الإهداء

إلى والدتى الحبيبة

وقد علمتنى كيف أحب مصر والمصريين

إلى هلا الصغيرة

أهديك بعضا مما أكتب وكل ما فى القلب من مشاعر

مقدمة لازمة

لأن لكل أمر بداية.. فإننى أردت أن أتتبع فى هذا الكتاب مايكتب في أول السطر وأول الأحداث وأول الكلام.. فقصة آل البيت فى مصر لاتعد قصة عادية تروى حول مجموعة من الأشراف الذين اختاروا بر مصر لهم موطنا بعيدا عن عسف الحكام فى وقت ما.

ولكنهم فى الحقيقة يؤرخون أشياء وأحداثا هامة حدثت فى مصر. فالحكاية لم تبدأ بهجرة بعض آل البيت إلى مصر بعد واقعة كربلاء الشهيرة، ولكن آل البيت فى مصر قد جاءوا فى حقيقة الأمر ليكونوا شموساً تدور فى السماء المصرية .

فقد كانت مصر على موعد مع الإسلام، ولهذا لايبدو أن هناك إنفصالا كبيرا بينها وبين ماحدث فى الجزيرة العربية فى زمن النبوة ورسالة الرسول الكريم(صلى الله عليه وسلم) وماقبلها.

ولهذا فقد توقف هذا الكتاب عند أحداث قد تبدو للبعض بعيدة بعض الشىء عن آل البيت إلا أن التدين العميق الذى أظهره المصريون منذ ماقبل عصر الأسرات الفرعونية ثم قصة السيدة هاجر المصرية التى تعد أم العرب والمسلمين جميعا وأمومتها لسيدنا إسماعيل عليه السلام ثم قصة مجىء عمرو بن العاص إلى مصر ثم فتحها، لهى كلها إرهاصات مصرية على الطريق، فلولا هذه الشخصيات لما دخلت مصر بهذه القوة فى النسيج

الإسلامى ولما أضافت وأعطت هذا الرصيد للحضارة الإسلامية.

ولهذا فلم يكن إختيار أهل البيت مصر إلا مبرراً من قبل، بهذه الأحداث وهذه البصمات، ولأنه لم يكن هناك فى إعتقادى مايسمح بالدخول إلى هذه المساجد وإلى مكوناتها الجمالية والتى أهداها المصريون إلى أهل البيت دون الدخول فى تفاصيل النفس والروح المصرية المسلمة.. ولهذا كان لابد من سرد مثل هذه التفاصيل.

وكان لابد أيضاً من وصف حكايات آل البيت من وجهة النظر المصرية.. فالحسين هو السيد والحبيب، والسيدة زينب هى أم العواجز، والسيدة نفيسة هى صاحبة العلم والمقام..

وأخيرا أرجو ألا أكون قد طرقت باباً يحسب على ولايحسب لى.. ولنبدأ من أول السطر.

د.هالة

الباب الأول

ما أن تصل إلى منطقة الغورية وحى الحسين والجمالية والخيامية.. ما أن تأخذك قدماك إلى عتبات حى الخليفة والسيدة زينب. ما أن تدور عيناك وسط كل هذه المساجد التى تلقى مآذنها بظلها الجميل على المكان.

ما أن تنبئك رائحة المسك والبخور بانك بالفعل فى مكان غير المكان حتى تتوقف فأنت الآن فى رحاب مساجد يتوقف عندها التاريخ هو الآخر.

ففى رحاب القاهرة التاريخية.. توجد مساجد آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم والتى يعشقها أهل مصر. فهى مساجد صاحبة تاريخ وصاحبة قصص جميلة يحفظها المصريون ويتوارثونها جيلا بعد جيل.

فلآل البيت فى مصر حكايات.. وللوجوه المصرية التى تمشى هنا وهناك فى الشوارع والأزقة الضيقة المجاورة للمساجد حكايات أيضا.

ولكن ماحدث فى مصر هو عبقرية من نوع خاص.. فقد عاش آل البيت فى مصر واختلطت قصصهم بالحكايات المصرية الجميلة. وأصبح تاريخهم ترنيمة مصرية..ترى هل يمكن ان نقرأ معا بعض هذه السطور وتلك الحكايات.. أم أن الأمر سيكون مراجعة فى تراث الأجداد الذين عاشوا فى رحاب آل البيت فى بر مصر؟!!

الفصل الأول

أول السطـــر

اللهم إنا نسألك أنت الأعز الأكرم أن تقبلنا فى رحابك سجوداً على بابك أحباء أنقياء أصفياء أولياء يا أكرم الأكرمين.. دعاء أبدأ به حديثى وان كنت لا أعرف إلى الآن كيف أبدأ.

فبين غبشة الفجر وظلمة الليل.. تدور الحياة ويتركنا يوم إلى يوم وتسرع بنا الخطى حتى تأتى لحظة ليست من بعدها لحظة.. فالحياة رحلة قصيرة فهى يوم أو بعض يوم وان كنا خلال هذه الرحلة القصيرة يقابلنا نوع من البشر يأبى أن يترك الدنيا دون أن يضيف لها شيئا جميلا لتصبح الحياة أفضل بوجوده.

فلكل منا صورة قريبة من نفسه لمعنى النقاء التى تبدو غالبا موجودة فى شخص نعرفه ويعرفنا ليصبح كالخاطر الذى يقفز إلى الأذهان إذا ما سألنا أحد عن صورة للنقاء والصفاء، حتى أننا نقسم أحياناً بأنه لايوجد فى الدنيا من يتفوق على من نقصد فى حسن الظن وسلامة النفس.

ولا أعتقد أن أية حياة يمكن ان تخلو من هذه المشاعر ولامن هؤلاء الذين أودعونا كل هذا الحب والذين نذكر عنهم الكثير من المواقف والتى لاتختلف طريقة روايتنا لنوادرهم ومآثرهم فى أى مرحلة من عمرنا. فقد تتغير الأشياء ولاتتغير النظرة ولا الحب مهما تتابعت الصور وتوافدت شخصيات على حياتنا وتزامنت الفترات العسيرة مع اليسيرة.

ولكن إذا كانت هذه الصورة محفورة فى القلب لاينساها أى منا فكيف يكون الأمر إذا ما اجتمع عليها الناس أو مجموعة من البشر تلتزم بها وتجعلها من ثوابتها.

قد يبدو السؤال للوهلة الأولى غريبا، وقد يجيب من يقرأ بأن هذا الامر

قد يحدث فى حالة بعض الزعماء والرواد وأصحاب الأيادى البيضاء الذين يغيرون من تاريخ الوطن ويكتبون بأقلام عريضة فى دفتر أحوال الناس، فلولا هؤلاء لما كان لهذه الحياة طعم القبول.

الا اننى أريد أن أتوقف قليلا عند هذا الأمر لأن هناك مايحملنا إلى نوع آخر من التفسير. فلايمكن وبأى حال أن يتفق مجموعة من البشر بين يوم وليلة ولا حتى خلال قرن من الزمان على أن يكونوا شعبا أو أمة. كما لايمكن أن يتفقوا فيما بينهم على أشخاص وأشياء يحبونها وأشياء وأشخاص آخرين لانقول أنهم يقفون منهم فى جبهة الرفض بقدر ما نقول انهم يقفون فى جبهة غير المقبولين لديهم.

فالحقيقة انه لايمكن قبول منطق التقسيم بين الأبيض والأسود بين يوم وليلة، ولكنها الظروف والأيام والوقائع وأحداث التاريخ فهى التى تصنع هذا الأبيض وهذا الأسود.

فالأحداث تؤكد ما تؤكد وتنفى ماتنفى لتصبح عقائد راسخة ولتنتقل من مجرد مشاعر شخصية إلى أمة بأسرها لتصبح وكأنها من الجيوب الداخلية للأمة التى يعرفها ناسها فقط.

ولأننا لانريد أن نبتعد عن بر مصر ولا عن الذين يعيشون فى رحاب «آل البيت» فإننا لانريد أن نفلسف فكرة الجيوب الداخلية للأمة لتأخذنا بعيدا عن الواقع. فلايعرف النيل والزرع والحصاد وساعات العصارى ومواسم القطن والحصاد وظل شجر الجميز وصوت السواقى فى كل قرية إلاّ مصرى، فهى تفاصيل تجتمع فيما بينها لتكون الجذور التى لاتختفى فى أى زمن.

فمع تتابع مواسم الحصاد وفيضان النيل وتحاريقه ومع موت الأرض

وعودتها للحياة أصبح هناك إحساس خاص بالدين وأهمية التدين حتى انه لايصح وبأى حال تقرير الأوضاع الاجتماعية والسياسية فى زمن مادون العودة إلى الحالة الدينية.

وقد كان المصريون هم الأكثر إلتصاقا بالحالة الدينية فى تقريرهم لشكل أمتهم لكل هذه الأسباب، فمنذ عهد الفراعنة وحتى فى زمن ماقبل الأسرات الحاكمة لبر مصر «استطاعت مصر فى عهد مبكر من تاريخها أن تصل إلى وحدة سياسية تقوم على أسس قوية من النظم العلمية والقانونية والإدارية. فقد أخذ المصرى يحاول التعرف منذ أقدم العصور على أسرار العالم الذى يعيشُ فيه ويتساءل كيف خلقت الأرض وبدأت الحياة عليها وتخيل الطريقة التى تمت بها عملية «خلق الخليقة»، لقد اعتقدوا أن العالم كان غارقا فى خضم أزلى (نون) وأخذت مياهه تنحسر رويدا رويدا كما تنحسر مياه الفيضان عن سطح الوادى حتى أتى اليوم الذى برز على صفحته «تل عال» أصبح بمثابة البيئة اليابسة الصالحة لبدء الخليقة.

وهنا خلق الإله الأصل نفسه من نفسه ثم أخذ يخلق الخليقة، وقد اختلفت المدارس فى طريقة الخلق إلا إنها جميعا اتفقت على بدء الحياة فوق التل العالى (١).

ورغم ان ماجاء قد ذكر فى الموسوعة المصرية لتاريخ مصر القديمة التى اسهبت كثيرا فى وصف عقيدة المصريين وتدينهم. إلا انها تظل افتراضات تشى بمكانة فكرة التدين عند المصريين وهى المسألة التى لم تقف عند حد فكرة البحث عن معنى وجود الدين فى الأصل عند المصريين بل تتعداها إلى فكرة التوحيد.

ففى توقيت هام بعد موت شامبليون مكتشف حجر رشيد وبداية العشق الفرنسى لعلم المصريات جاء عالم كبير وهو دى روجيه ليقدم محاضرة هامة له عام ١٨٦٩ وليتحدث عن وحدة الإله عند المصريين والتى كانت الخاصية الأولى للديانة المصرية والتى تقول: الإله الواحد الفرد الصمد لاشريك له - هو الكائن الأوحد - الحى فى الحقيقة - أنت الواحد وملايين الكائنات أنبثقت منك.. الذى خلق كل شيء وهو الوحيد الذى لم يخلقه أحد.

وهكذا أظهر فكرة الإله الفرد الأول ليكون الجوهر الواحد الدائم فى كل مكان، موجود بذاته، إله لايمكن الوصول إليه (٢)

وبعدها بعشر سنوات أى فى عام ١٨٧٩ جاء بول بيريه ليؤكد ماقاله دى روجيه بل ويضيف إليه فى كتاب Essai sur la mythologie Egyptienne «مقالة فى علم الأساطير المصرية»، والذى أكد فى الفصل الأول منه، أن الديانة المصرية توحيدية بالضرورة وان بدت متعددة الآلهة ولايمكن ان تكون غير ذلك لان الإله واحد وإلا فلا وجود له.

فالإيمان بآلهة كثيرة هو إنكار للإله مالم ينظر إليها باعتبارها رمزية صرفة فهى أدوار أو وظائف للإله الأعلى المفرد الخفى.

ولايعتقد أن بيريه كان الأخير فى قائمة من أشاروا إلى أهمية التدين وحقيقة التوحيد فى مصر فمن بعده جاء أوجست مارييت - عالم الآثار المصرية الشهير ومؤسس المتحف المصرى - ليقول إنه يعتقد وبصفة خاصة أن هناك إلهاً فرداً خالداً مخلوقا بذاته لاتدركه الأبصار خفياً مدخراً لأولئك الداخلين فى قدس أقداسه.

وأما العالم الكبير بيج فهو الوحيد الذى أمن بالرأى القائل بأن الكهنة

الحمقى هم الذين وضعوا ظلالاً على العقيدة التوحيدية النقية التى ظهرت فى مصر منذ العصور القديمة وهو ما كان موجودا فى نصوص الحكمة. ولهذا فهو يفترض مثل ماريبيت ان العقائد المصرية قد سارت فى طريقين وهو حل لايزال يبدو سهلا جدا لكثير من خلفائه وهو ان الإله الواحد كان للحكماء ذوى العلم وأما التعدد فكان للجماهير.

وطور فيما بعد العالم دريتون أفكاره فى مقاله «عقيدة التوحيد فى مصر القديمة»، حيث أكد بالأدلة على وجود عقيدة توحيد فى مصر قبل إصلاحات إخناتون بزمن طويل كما يظهر فى نصوص الحكمة (٣).

وإذا كانت فكرة التدين عند المصريين قد جعلتنا نطالع كل هذا الجدل حول فكرة التوحيد ووجود هذه الآراء والجدل بين عالم يتفق على التفهم المصرى لفكرة الوحدانية وعالم آخر يتعامل بحذر مع هذا المنطق فان هذه المجادلة ليست بعيدة عن حديثنا. فالانطباع الأول هو الذى يجعل مثل هذه المجادلة بعيدة عن حديثنا عن آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم وأيامهم فى بر مصر وقد تجعل من يقرأ يتساءل عن هذا الخلط فى الأمور إلا أنها وكما اعتقد ليست ببعيدة.

فلابد أن نتعرف فى البداية على النفسية المصرية ولابد أن نفهم فيما بعد لماذا اختار الكثير من آل البيت مصر لوضع الرحال بل والاستقرار فيها مابقى من العمر.

كما ان المصريين أنفسهم وحتى لو استبعدنا فكرتهم عن التدين - وهذا بلا شك صعب - لم يكونوا فى أى زمن فى إلتفات عن أرض الحجاز التى تجاورهم. فما يحدث عند الجار يسمع ويصبح حديث الجار والجارة. ولهذا فان

للأمر توابعه ولكننا قبل أن نتحدث عن الثقافة والدين والعادات الاجتماعية سنتحدث أولا عن التجارة وعن طرق القوافل العربية التى تؤكد بما لايدع مجالا للشك بان هناك حضورا ومودة بين الجار والجار.

ففى الزمن القديم كانت الجزيرة العربية تعتمد فى خبراتها على ما تأتى به قوافل التجارة. فقد كان العرب يعشقون هذه المهنة ويعتبرونها المهنة الأعلى، وكان هناك طريقان رئيسيان للقوافل أحدهما من الشمال إلى الجنوب غير بعيد من البحر الأحمر وهو فى الشمال يتفرع إلى الشمال الشرقى تجاه سوريا وإلى الجنوب الغربى تجاه فلسطين ومصر وهو فى الجنوب يسير شوطا مع ساحل حضر موت.

أما الطريق الثانى فهو يخترق الجزيرة العربية من البحر الأحمر إلى الخليج مارا بمكة ويتفرع فى قلب الجزيرة فرعان يتجه أحدهما إلى الشمال الشرقى فيصل شط العرب ويتجه الآخر إلى الجنوب الشرقى ويسير هذا مع الخليج ماراً بدبى ومسقط وظفار. (٤)

ولهذا لايمكن إلا أن يكون هناك تأثير وتأثر، فعلى مر العصور كانت مصر تقدم فكرة الدولة المجاورة للحجاز وان بدا دورها غامضا فى بعض الكتب التاريخية الا ان عالما اثريا كبيرا مثل الدكتور عبد الرحمن الطيب الانصارى يعتقد ان هناك ثقافة مشتركة بين مصر والجزيرة العربية أطلق عليها اسم ثقافة البحر الأحمر. ومصر تمتلك طرقا للتجارة من الجزيرة العربية إلى السودان كما أن هناك مناطق بالمملكة العربية السعودية اكتشفت بها كثير من شواهد القبور، ووجدت مثيلاتها فى مصر ومنطقة البحر الأحمر. وقد وجدت كتابات هيروغليفية ليس فقط فى المنطقة القريبة من مصر ولكن فى وسط الصحراء وفى الربع الخالى أيضا (٥)

ورغم كل مانقول فان هذا التأثير لا ينفى خصوصية الجزيرة العربية التى تنازعها ملوك الغساسنة والمناذرة والتى بقى فيها الحجاز كحالة متفردة فالحجاز كان له مبدأ استقلال سياسى ودينى لاينافسه عليه أحد. فكثيرة كانت أسفار العرب الحجازيين إلى الحواضر العربية إلا أن رحلة الشتاء والصيف كانت للتجارة وربما تأثر بها التجار ولكن هذا لم يفرض إختراقا لهذا الخط الحجازى الشديد العروبة وان لم يمنع وجود معرفة بالدنيا من حولهم.

فللحجاز وبالذات فى مكة والمدينة كان هناك تاريخ يصعب على أى مسلم تجاهله فهو البداية التى تعرف فيها كل الأشياء.. ولكن هل يمكن ان يكون تاريخا جديدا لمصر بدأ من هذا المكان؟.. مجرد سؤال.

الفصل الثانى

أول الكلام

أول الكلام لابد أن يكون قصة خليل الله إبراهيم عليه السلام ومجيئه بالسيدة هاجر وإبنهما إسماعيل إلى أرض الحجاز. فلم يكن وقتها لأى فرد من أفراد هذه الأسرة الصغيرة أى علم بأرض مكة التى كانت بالنسبة لهم مكاناً فى علم الرحمن وحده، فلم يكن إبراهيم ابن أرض الرافدين المثمرة ليعرف شيئا عن هذه الأرض ولا السيدة هاجر المصرية التى لم تستوعب عيناها فى طفولتها سوى أرض مصر ونيلها، وأما الطفل الصغير إسماعيل فقد كان من حال الأصل ليست لديه أية خبرات فى الحياة ليتفوق بها على والديه أو ليشاركهما حيرتهما، فلم تكن مكة قد قفزت بكل هذه الأرصدة الروحية والنفسية إلى الأذهان. فكل ماكان يعلمه سيدنا إبراهيم عليه السلام قد دلته عليه عيناه وهو انهم بواد غير ذى زرع وقد أمره الله سبحانه وتعالى بالذهاب إليه، ولم يكن ليخرجه من حيرته سوى سؤال السيدة هاجر.. الله أمرك بهذا؟

- نعم

- إذن لن يضيعنا

وقد حدث ماتوقعت هاجر وكان الله تعالى عند حسن ظن أمته المصرية حتى فى أصعب اللحظات.. فقد كانت هاجر تظن أن أصعب اللحظات قد مضت عندما تمنطقت بحزام يتدلى طرفه خلفها فيزيل آثار أقدامها حتى لاتعلم وجهتها السيدة سارة زوجة سيدنا إبراهيم.

إلا أن سطوة الشمس وما جاء بعدها من سطوة الجوع والعطش قد اثبتت جميعا انها الاختبار الحقيقى للأم ووليدها.

فلم يكن أمام هاجر فى هذه اللحظات الفارقة بين الحياة والموت إلا محاولة البحث عن الماء وهرولتها بين الصفا والمروة لسبع مرات لم تدر فيها

أين تأخذها قدماها ليظهر بعدها الماء الذى أصبح بئر زمزم المبارك. والذى أصبح بداية فكرة العمران الدائم فى هذا المكان الذى استقرت فيه قبيلة جرهم فيما بعد عقب استئذانها السيدة هاجر فى الإقامة إلى جوارها وجوار ابنها وجوار البئر التى لم تنضب أبداً.

ولعل قصة سيدنا ابراهيم ووجوده فى هذه الأرض تجعلنا نتوقف عند مبدأ يدخل فى صلب الاسلام وهو التكليف الذى جاء مصحوباً بالامامة كما جاء فى قوله تعالى «وإذ إبتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لاينال عهدى الظالمين» (البقرة ١٢٤)

فقد نزل آدم الأرض كخليفة، أما إبراهيم فقد كلفه الله سبحانه وتعالى بالإمامة وأعطاه المنهج وبين له النظام والشريعة التى ارتضاها له وللأمة المسلمة والتى يبدو من خلالها مقومات وسمات الأمة المسلمة. (١)

ويشاء الله تعالى أن يشارك إسماعيل عليه السلام فى رفع البيت وتطهيره للطائفين والقائمين والركع السجود. ويصبح إسماعيل عليه السلام حلقة أخرى من خيار البشر ويخرج من صلبه الكثير من أبنائه وتستقر فى مكة قلوب رقيقة معلقة بالسماء وأخرى غليظة تدركها أمواج الفساد حتى لايبقى فى القلب مضغة خير. إلا أن المنهج يبدو باقياً وقائما حتى انه بعد سنوات من استقرار قبيلة جرهم فى الأرض ترتفع أصوات من بين أهلها تطالبهم بإصلاح الأمر والالتفات إلى الجانب الطيب من الحياة عملاً بالشريعة الحنيفة التى جاء بها إبراهيم عليه السلام حتى انه فى خطبة أحدهم وهو مضاض بن عمرو الجرهمى تبدو كل معانى الحق واضحة حيث يقول:

«ياقوم ابقوا على أنفسكم وراقبوا الله فى حرمه وأمنه فقد رأيتم

وسمعتم من هلك من صدر هذه الأمم قبلكم قوم هود وقوم صالح وشعيب. فلاتفعلوا وتواصوا بالمعروف وانهوا عن المنكر ولاتستخفوا بحرم الله تعالى وبيته الحرام، ولايغرنكم ما أنتم فيه من الأمن والقوة وإياكم والإلحاد فيه بالظلم فإنه بوار وأيم الله. لقد علمتم انه ماسكنه أحد قط فظلم فيه وألحد إلا قطع الله عز وجل دابرهم واستأصل شأفتهم وبدل أرضهم غيرهم. فاحذروا البغى فإنه لا بقاء لأهله. قد رأيتم وسمعتم من سكنه قبلكم من طسم وجديس والعماليق ممن كانوا أطول منكم أعماراً وأشد قوة وأكثر رجلا وأموالاً وأولاداً فلما استخفوا بحرم الله وأكدوا فيه الظلم أخرجهم الله منها بالأنواع الشتى فمنهم من أخرج بالذر ومنهم من أخرج بالجدب ومنهم من أخرج بالسيف. وقد سكنتم مساكنهم وورثتم الأرض بعدهم فوقروا حرم الله وعظموا بيته الحرام وتنزهوا عنه وعما فيه ولاتظلموا من دخله وجاء معظماً لحرماته، وآخر جاء بايعاً سلعته أو مرتعباً فى جواركم فانكم ان فعلتم ذلك تخوفت أن تخرجوا من حرم الله فى ذل وصغار حتى لايقدر أحد فيكم أن يصل إلى الحرم ولا إلى زيارة البيت الذى هو لكم حرز وأمن، والطير والوحوش تأمن فيه. (٢)

ولاعجب فى أن يكون مضاض بن عمرو الجرهمى هو من ألقى بالغزالتين الذهبيتين الشهيرتين ومجموعة من الدروع فى بئر زمزم، ولا عجب فى أن يتحقق كل ماقاله ليخرج أهل جرهم من مكة بعد أن يخذلهم فعلهم بعد ظلمهم. فالبغى لا بقاء لأهله، وهو ماجاء فى حكمة الدين الحنيف ودعوة إبراهيم عليه السلام لترث خزاعة الأمر من بعدهم ومن بعدها قريش بمجىء قصى بن كلاب ثم ابنه عبد الدار الذى نافسه عبد مناف حتى انتهى الأمر إلى فكرة اقتسام السلطة فى أبسط معناها وهو ما يعنى إعطاء السقاية والرفادة لأبناء عبد مناف والحجابة واللواء والندوة لبنى عبد الدار.

وأما السقاية لمن لايعرفها فهى إحضار الماء من آبار بعيدة ووضعه فى أحواض وتحليته بشيء من التمر والزبيب وإعداده ليشرب منه الحجاج بينما الرفادة هى تقديم الطعام لغير القادرين من الحجاج. ويروى أن قصيا فرض على قريش ان يقدم كل واحد منهم شيئا إليه ليصنع طعاما للفقراء من الحجيج.

وقال قصى فى ذلك: يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته وإن الحاج ضيف الله، وزوار بيته هم أحق الضيف بالكرامة فاجعلوا لفقرائهم شراباً وطعاماً أيام هذا الحج حتى لا يصدوا عنكم ، ففعلوا فكانوا يخرجون لذلك كل عام جزءاً من أموالهم فيدفعونه إليه فيصنعه طعاما للناس.

وأما اللواء فهى الدعوة إلى الحرب برفع راية فوق رمح ويتبعها قيادة الجيش، والحجابة هى خدمة الكعبة وتولى مفاتيحها (٣).

وهكذا لايمكن أن نترك عمرو الجرهمى ولاقصة عبد الدار وعبد مناف دون أن نفهم أنه فى ذلك الزمن كانت هناك معرفة تامة بأنبياء الله وبالحق والخير والحلال والحرام والمروءة والشجاعة والخوف من الابتعاد عن الطرق المستقيمة والخوف من أن يسقط أى مجتمع مهما صغر فى الرذائل فيبتعد عن الخطوط العريضة للعرف والأخلاق والتقاليد.

وقبل أن نترك ذلك الزمن لابد أن نتوقف عند تصور بديهى عما حدث بين عبد الدار وعبد مناف وعن هذه القسمة أو الرغبة فى اقتسام التواجد القوى الذى حدث فى الأراضى الحجازية والذى مالبث أن تطور مع الأيام إلى شيء آخر أبعد ما يكون عن مبدأ الإقتسام أو حتى المنافسة المقبولة.

فما حدث فى كربلاء كان نتيجة منافسة قرشية كما سيأتى ذكر ذلك فيما بعد، والمشكلة أن الأحداث لايمكن أن تتوقف عند حد معين وان الأيام

نفسها قد تحمل فى باطنها مايؤجج مبدأ التنافس الذى يصبح فيما بعد فتنة لاتنام.

وإذا كان لنا فرصة فى أن نعود مرة أخرى فإننا نعود إلى السيدة هاجر المصرية الصابرة والتى تركناها لفترة دون الحديث عنها. فقد كان آخر مشهد ترقبه أعيننا هو مشهد الأم وهى تستجدى السماء لترسل إلى إبنها رزقاً يمنحه الحياة التى كادت أن تنسحب منه، ومشهد السيدة التى لم تكن لتظن أن هناك جدبا وقحطا فى هذه الدنيا يسكن أرضاً بمثل هذا الثبات. فقد كانت هذه هى السيدة هاجر وتلك هى أفكارها فأين هذه الأرض الصعبة من أرض مصر السهلة الخضراء والتى حتى فى أيام التحاريق وعندما تصبح شراقى كما يقول المصريون لايمكن ان يصل الأمر إلى مثل هذا الحد.

إلا أن العبرة فى قصة هاجر تتمثل فى صبرها وفى أمومتها وفى حكمتها فى سؤال زوجها عن حقيقة الأمر وعن معنى وجودها فى هذا المكان مع ابنها لم تكن لتقف كقصة منفردة. فهى أم العرب والمسلمين ولم تكن قصة تضحيتها لتتلخص فى واقعة سعيها بين الصفا والمروة والهرولة على هذه الأرض التى لم تكن فى لحظتها بوعى خاص منها وهى صورة أصبحت فيما بعد احدى شعائر الحج والعمرة التى فرضها الله تعالى على البشر.

فالمغزى الحقيقى أن القصة قد حدثت ولكن بشكل آخر وإن اختلفت تفاصيلها فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم. فهناك سيدة جاءت إلى المدينة لتستعيد قصة هاجر زميلتها المصرية التى جاءت من أرض النيل وحملت من سيدها إبراهيم عليه السلام فأثارت غيرة زوجته السيدة سارة، فمازالت بزوجها حتى مضى بتلك المصرية وابنها إلى البيت العتيق حيث تركهما هناك وحيدين بواد غير ذى زرع عند أطلال البيت.

وقد ألفت السيدة مارية حين تخلو بنفسها أن تفكر بهاجر ومصريتها وأمومتها لإسماعيل وللعرب. فلم تخطىء فى ملامح شبه بينهما: فكلتاهما جارية مصرية وكانت هاجر هبة من سارة للنبى إبراهيم عليه السلام، كما أن مارية هبة من المقوقس للنبى محمد صلى الله عليه وسلم وقد أثارت كلتاهما غيرة الزوجات الشرعيات فى بيت النبوة سواء سيدنا إبراهيم عليه السلام أو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ولكن هاجر كانت أما لولد إبراهيم عليه السلام فهل تغدو مارية أما لولد محمد عليه الصلاة والسلام (٤).

وقبل ان نسبق الأحداث وندخل فى تفاصيل قصة مصرية أخرى فان الثابت من القول أن القصص قد تتكرر بعض مواقفها وان تجاوزت فترة طويلة من الزمان وان شيئا آخر كان يربط حياة النبى محمد عليه الصلاة والسلام بجده إبراهيم وهو هذا الرباط المصرى الذى أوجده الله تعالى فى حياة الرجلين.

وان كانت قصة السيدة هاجر معروفة لكل الناس فان قصة مارية لاتقف على مسافة بعيدة ، فهى ابنة أخرى لصعيد مصر، وقد ولدت لأب قبطى وأم رومية وانتقلت إلى قصر المقوقس مع اختها سيرين، ولم تحسب يوما ان تكون ضمن هبة المقوقس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عند دعوته بدعوة الإسلام.

فمارية وسيرين وعبد وألف مثقال ذهب وعشرون ثوبا لينا من نسيج مصر وبغل مسرج ملجم وحمار أشهب وجانب من عسل بنها وبعض العود والند والمسك كانت هى الهدية المختارة.

واذا كانت هذه هى بعض أطياف قصة مارية فان قمة الأحداث تحقق عندما آثرها الله تعالي بحملها بابراهيم والذى جاء اسمه تيمنا باسم ابراهيم

الخليل عليه السلام والذى جعل أمنية مارية فى ان تتكرر قصة هاجر تتحقق.

فهى السيرة التى طالما راودت صاحبة الإيناس والرجاء من الله عز وجل ماريا الا أن هذه الفرحة الغامرة سرعان ما اختبرت فيها الأم التى لم تصدق ما وعت عندما عرفت بانها تحمل ابناً فى أحشائها ولا الأب الذى قد ذهب كل الأبناء والبنات عندما توفاهم الله فى حياته ولم يبق من آل بيته الا فاطمة الزهراء.

ويتم الله اختباره لنبيه ويرحل ابراهيم الذى جاء فى سنوات كبر الأب قبل ان يتم الوليد عامه الثانى، ويصبح مجرد فرحة عابرة مرت بحياة الأبوين كان لابد أن يحل محلها موطن الصبر فى قلبيهما، فاذا كان ابراهيم قد جاء الى هذه الدنيا فى السنوات الاخيرة من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم فانه كان الحياة كلها بالنسبة لأمه التى كانت تذهب إليه حيث ووري جثمانه الصغير فى البقيع لتبكى وتتذكر وحيدها. فلعل فى القرب حتى بعد الرحيل راحة لايعرفها إلا من أحب عن حق.

ورغم أن القصة فى بدايتها تبدو مبشرة بكل الاشراقات فانه لامفر من هذا الاختبار ولا ملجأ من الله إلا إليه. وفى العام السادس عشر من الهجرة تنتهى القصة كلها بموت السيدة مارية التى كتب لها ان تعيش بعد النبى خمس سنوات وصفت بانها كانت سنوات عزلة وان كانت ليست عزلة بالمعنى المفهوم. فقد كانت مارية مثل هاجر المرأة التى منحت عمرها لربها ولسيدها ولولدها ولم يكن هناك شخص آخر أو شيء آخر، فكل منهما منحت ولم تنتظر، وكل منهما أعطت ولم تسأل. فالمسألة كلها انهما كانتا امرأتين احبتا فمنحتا العمر والمصير والحياة لمن احبتا ولم ترى عيونهن غير من احبتا.

فهذه هى حكمة الحب فى كل زمان ومكان وهى وقائع حسبت للمصريتين هاجر ومارية اللتين لهما بصمات واضحة فى التاريخ.

ولاننا لانستطيع ان نختم الكلام دون ان نقف ايضا عند معنى الاختبار لهاتين السيدتين وان كان الاختبار كان اصعب لدى مارية عند موت ابنها ابراهيم والذى قال عنه والده الرسول الكريم: تدمع العين ويحزن القلب ولانقول مايسخط الرب ولولا انه وعد صادق وموعد جامع وان الآخر منا يتبع الأول لوجدنا عليك يا إبراهيم أشد مما وجدنا. وان يا إبراهيم عليك لمحزونون. صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصدق ظن الله تعالى فى أمتيه المصريتين اللتين اختارتا الصبر على المكاره والالتزام بالامومة وتكريس الحياة من اجل زوج صالح وكأنه الطريق الوحيد فى الحياة.

وان كنا قبل ان نختم حكايتى مارية وهاجر يمكن ان نقرأ معا قصة تصل حكايتهما بقصة الإسلام فى مصر، وهى التى تحملها هذه الرسالة التى كتبها الرسول صلى الله عليه وسلم الى المقوقس عظيم القبط فى مصر بعد عودته من الحديبية والتى حملها حاطب بن ابى بلتعة والتى يدعو فيها سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام أهل مصر ممثلين فى المقوقس للدخول فى الاسلام.

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فأنى أدعوك بدعاية الإسلام فاسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين. يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولانشرك به شيئا ولايتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله. فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون. (٦)

وتصل الرسالة إلى المقوقس والتى على الرغم من عدم اسهابها او توقفها

عند امر او غيره تفتح بابا من الاسئلة فى نفس المقوقس حول هذا الدين الجديد ومنها عبادة الله وصوم شهر رمضان وحج البيت، وقد اوصلت الرسالة ببلاغتها وبحديثه مع حاطب حقيقة الامر الذى رآه المقوقس جدا وان هذه هى أركان الدين الذى بشر به عيسى عليه السلام فهو النبى المنتظر كما جاء فى الكتاب المقدس وان كان فى أغلب ظن المقوقس انه سيكون من أهل الشام على عادة الأنبياء، فكتب بدوره يقول:

لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط. سلام اما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ماذكرت وما تدعو اليه، وقد علمت ان نبيا قد بقى وقد كنت اظن انه يخرج من الشام وقد أكرمت رسولك.. وبعثت إليك بجاريتين لهما مكانا فى القبط عظيم وبكسوة وأهديت إليك بغلة لتركبها والسلام.[٧]

وتنتهى قراءتنا للرسالتين والتى كانت أول الكلام فى حديث اخر للاسلام مع مصر. فبعدها بزمن قليل تبدأ أول الأحداث الفعلية.. ترى كيف ستكون؟

الفصل الثالث

أول الأحـداث

كأنى أسمعها.. وقع حوافر خيل الله وهى تصل إلى بر مصر. وكأنى أراها.. تثير عاصفة من الرمال من سرعة ارتطام الأرجل بالأرض ومن تساؤل يدور بين أهل مصر أنفسهم .. فمن الذى أتى إلينا هذا الصباح وينتقل السؤال من هنا إلى هناك ولكنه لايحتاج كثيرا من الوقت ليدور على كل بيوت المصريين.. فهؤلاء هم جند الخليفة عمر بن الخطاب وهذا قائدهم عمرو بن العاص.

والحقيقة التى ربما لم يدركها المصريون وقتها أن هذه لم تكن المرة الأولى التى يرى قائد جيش المسلمين مصر، فقد كان لعمرو قائدهم معها لقاء يوم كانت التجارة حرفته كغيره من أهل قريش، ولكن ماحدث وقتها ان مصر لم تكن لتدخل بثقل فى حسابات الربح والخسارة القرشية. ولهذا جاءت بداية القصة وأول الأحداث فى بيت المقدس وفى رحلة الصيف عندما كان يسير عمرو بتجارته فالتقى مصادفة بشماس من شمامسة الروم من أهل الاسكندرية جاء قاصدا بيت المقدس للتبرك والصلاة، وكما يبدو لم تكن المصادفة مقصورة على عمرو وحده، ففى الطريق يبدو أن هناك أشياء لم يحسب لها حسابا قد تتابعت فى مواجهة هذا الرجل.

وأولها العطش الذى كان قد بلغ به مبلغا استوهن قوته واستوقف خطواته، ذلك ان ماكان قد احتفظ به الشماس من ماء قد نفد ولم يبق لديه جرعة واحدة تضمن له الحياة فلم يجد أمامه سوى عمرو ليسأله شربة ماء لتحييه فيستجيب عمرو وتبتل عروق الشيخ الذى أرهقته الشمس والعطش فيخلد إلى الراحة بعد الارتواء ويروح فى غفوة عميقة كاد ألا يستيقظ منها عندما هاجمته حية كبيرة.

ويرى عمرو الحية وهى تقترب فلايجد أقرب إلى يديه من قوسه وسهامه التى تنهى الموقف بموت الحية، ويستيقظ الشماس وهو لايكاد يصدق ان

الحياة قد كتبت له المرة بعد المرة على يدى عمرو الذى انجاه من حرقة العطش وخيانة الحية.

فيسأله الشماس وسط ذهول فرحته بالحياة أن يدفع ديّته والتى يخبره عمرو بأنها عند العرب تقدر بمائة من الإبل، فيطلب من عمرو أن يذهب معه إلى بلاده، فالمصريون ليسوا من أصحاب الإبل ولكنه سيقدر مايستحق عمرو بالمال ويدفعه له إذا ماذهب معه إلى الاسكندرية.

ويكتب لعمرو بهذه المصادفة دخول الاسكندرية فى وقت كانت المدينة تحتفل فيه بعيد عظيم يترامون فيه بأكرة من الذهب. وحدث ما حكاه لنا أبوالقاسم عبد الرحمن بن الحكم أن الأكرة كان يترامى بها ملوكهم وهم يتلقونها بأكمامهم. وفيما اختبروا من تلك الأكرة على من اوضعها من مضى منهم انه من وقعت الأكرة فى كمه واستقرت فيه لم يمت حتى يملكهم. فلما قدم عمرو الاسكندرية أكرمه الشماس الاكرام كله وكساه ثوب ديباج ألبسه إياه وهم يتلقونها بأكمامهم، فرمى بها رجل منهم، فأقبلت تهوى حتى وقعت فى كم عمرو فتعجبوا من ذلك. وقالوا ماكذبتنا هذه الأكرة قط إلا هذه المرة.. أترى هذا الإعرابى يملكنا.. هذا لايكون أبدا [1].

ولم تكذب الأكرة وحدث بالفعل ما أشارت إليه. وكما نعتقد لم يكن وقوعها فى كم عمرو مصادفة كما لم يكن إنقاذ عمرو للشماس أيضا مجرد مصادفة، فقانون الحياة لايقوم على المصادفة وان لعبت دورا، فقد يقع حادث ونظن فيما نظن انه مجرد حادث عابر فى حياتنا الا انه تبعا لقانون الحياة يكون فى الأغلب مقدمة لنقطة تحول أو إفاقة من غفلة كنا نعيش فيها، وكثيرة هى نقاط التحول التى تقلب الأسود إلى الأبيض والأبيض إلى الأسود، والأكثر منها هى لحظات الغفلة التى نعيشها بل وننعم بها إلى أن

تفاجئنا يقظة مباغتة أو لحظة تنوير كما يسميها مبدعو المسرح والرواية لتتغير من بعدها الأشياء وما أصعب الاستيقاظ بعد نوم وسبات معا، وما أقسى ان نرى حقيقة كانت حولنا دائما ولكن لم تدركها أبصارنا.

ويعود عمرو بن العاص بمبلغ الألفى دينار جزاء دفاعه عن الرجل وكثمن لشربة ماء وقتل الحية، فيدفع لأصحابه ألفا كاملة ويحتفظ بالأخرى. ولايعود بعد هذا الحادث إلى قريش خالى الوفاض. ففى لغة التجارة ما أكثر لحظات المكسب والخسارة، إلا أن المكسب الحقيقى يكون فى الإحتفاظ بشيء يفرض نفسه على الذاكرة والقلب، وهو منطق لايتغير فى أى عصر، وبهذا المنطق نفسه أصبحت مصر وبكل الحسابات العقلية والعاطفية هى المكسب الذى استقر فى قلبه وخاطره.

ولكن قد يتساءل أى منا هل استوعب عمرو بهذه السرعة مصر والمصريين لكى يتعلق قلبه بهم، ولماذا هذا التعلق وهذا الهاجس الذى استمر يطارده لسنوات طويلة وهو رجل إغارة وتجارة ورحلته فى النهاية تبدو كأية رحلة أخرى لابد وان تنتهى عند حط الرحال فى قريش.

فما الذى رآه عبقريا فى هذه البلاد؟ وهل افتتن بها بالفعل ام انه كان ينظر إليها وكأنه يستقرئ المستقبل، فالوعد بفتح هذه الأرض كان على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولم يكن عمرو فى الوقت الذى جاء فيه مصر قد دخل فى الإسلام ولكن قدومه وكما يتضح كان إرهاصة على الطريق، فالله وحده مقلب القلوب وهو الذى أودع فى قلب تاجر قرشى لم تكن حياته تخرج عن أسلوب حياة غيره من أهل قريش كل هذا الحب ليكون مقدمة لفتح مصر.

فالصدفة التى حملته إلى مصر لم تكن إلا تبريرا من الأقدار ومقدمات

لشيء غير من حياة مصر والمصريين وعمرو الذى أصبح فيما أصبح ثم أمسى فيما أمسى.

على أى حال لانعتقد أن عمرو فى رحلته القصيرة قد استوعب كل ما كان يجرى على أرض مصر. فقد اندهش عند رؤية المبانى المرمرية البيضاء والشاهقة فى الاسكندرية، وتوقف أمام البحر طويلا، واستنامت مشاعره لأهلها الذين كانوا يتعاملون مع الغريب بمودة وهى عادة مصرية موجودة فى كل عصر وأوان حتى ان اختفاءها يكون اعلانا عن بداية انهيار فى المجتمع وكثيرة هى البدايات والنهايات كما يحكى لنا تاريخ بر مصر.

ورغم هذا القبول للغريب فان مصر نفسها كما أشار د. عبد الصبور شاهين فى كتابه «مصر فى الإسلام» قد عرفت المعاناة من الغريب منذ انتهاء حكم الفراعنة بل وعرفت الاضطهاد وقتل وتعذيب المؤمنين كما حدث فى عهد دقلديانوس حيث طال الاضطهاد جميع الطبقات والذى بدأ بالبلاد المصرية عام ٣٠١ م وأظهر فيه دقلديانوس قسوة لامثيل لها جرت عليه كراهية المصريين وحنقهم حيث كانوا يرون فيه - إلى اليوم - مثالا للظلم والاستبداد وصاروا يؤرخون حوادثهم من سنة اعتلائه العرش عام ٢٨٤ للميلاد، ويسمى هذا التاريخ عندهم تاريخ الشهداء (٢).

إلا أنه وحتى بعدأن استتب الأمر للمسيحية فى روما لم يقلع الرومان عن هذا الاضطهاد الذى كان سمة مميزة لحكمهم. فالمأساة الكبرى انه بعد دخول المسيحية إلى روما ورضاء الحكام بها أصبح على مصر أن تدين بمذهبين رئيسيين مسيحيين وهما المذهب الملكانى الذى يعتنقه الحكام الروم والمذهب اليعقوبى الذى يعتنقه كل أهل مصر. (٣)

وحتى لو تجاوزنا عن مثل هذا الاختلاف الدينى فان للسياسة كلمتها

التى تفرق أكثر مما تقرب. فعندما أراد هرقل إمبراطور الروم أن يغير من عادات الظلم السياسى والاجتماعى التى تمارس فى مصر ويرفع جباية المال لمدة ثلاث سنوات عن قبط مصر وتغير الحال إلى حد أن صار للمطران المصرى سلطانا ومكانة وأموالا فكانت كنيسته تمتلك أسطولا من السفن التجارية التى تجوب البحار وخاصة البحر المتوسط وتعمل فى تجارة القمح التى كانت رائجة آنذاك بين الأسكندرية والقسطنطينية (٤) ظهر فى ذلك الحين كسرى فارس ليحطم كل شيء وتعم الفوضى وينتهى كل أمل فى الإصلاح، فلم يستطع الرومان الا الانتظار لتسع سنوات كاملة ليتحدوا مرة أخرى وليبدأوا معركة تستمر لست سنوات وتنتهى بانتصار الروم واستردادهم مصر وهى الأحداث التى ذكرها القرآن الكريم فى سورة الروم (١).

«آلم. غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين. لله الأمر من قبل ومن بعد، ويومئذ يفرح المؤمنون. بنصر الله، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم. وعد الله لايخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لايعلمون» «صدق الله العظيم»

ويعود الروم مرة أخرى إلى مصر وان كانت ست سنوات من الحروب وتسع سنوات من الإنتظار لم تستطع ان تقدم شيئا جديدا فى تقارب العلاقات بين المصريين والرومان. فلم تحقق عودة الروم مبدأ جديداً للتفاهم مع المصريين وكأن الحياة لاتتغير بين غاز وغاز آخر، فلم تتغير الأوضاع الاجتماعية والسياسية وتصاعدت حدة الخلافات بين المذاهب الدينية وتحديداً بين اليعقوبية المصرية والملكانية الرومانية وهو مافتح الطريق أمام المسلمين أو على الأقل سمح للعرب الذين لم يعهدهم المصريون محاربين بالظهور كقوة جديدة. وان لم يستتب لهم الأمر إلا بعد أن تيقن المصريون

من هويتـهم العسكرية وخاصة ان هناك رأيا لحنا النيرقوس وهو مؤرخ قبطي يقول فيه ان القبط لم يساعدوا المسلمين إلا بعد ان استولوا على الفيوم واقليمها. (٥)

ولكى نفهم لماذا تقبل المصريون العرب المسلمين لابد وأن ندرك المبررات أولا والتى كانت موجودة لدى المصريين الذين سأموا الحكم الرومانى. فهذا الزمن سجل أسوأ الحالات الاجتماعية والدينية والتى وكما اتفقنا تعتبر من الجيوب الداخلية للأمة المصرية. «حيث كان يعتبر الأبناء مثلا الذين يتم انجابهم من ام إغريقية وزوج مصرى مصريين ولكن يسمح لهم بان يرثوا كلا الوالدين. أما إذا تزوج رومانى رجلا كان أم إمرأة بإغريقية أو إغريقى أو مصرية. أو مصرى لايحصل أبناؤهم سوى على الوضع القانونى الأدنى، ولايحق للعبد الذى اعتقه مواطن سكندرى الزواج من مصرية. واذا تزوج شخص والده سورى وأمه أغريقية من سكان المدينة من امرأة مصرية يحكم عليه بغرامة مالية ينص عليها. واذا إدعت مصريات متزوجات من جنود مسرحين من الخدمة العسكرية أنهن رومانيات يخضعن لما يخضع له من ينتهك الوضع القانونى. (٦)

ويمكن القول انه حتى فى الأزمنة التى كان يراد فيها إصلاح ذات البين بين المصريين وحكامهم من الرومان لم تكن المحاولات لتنجح كثيرا أو لتبلغ مداها كما يتمنى المصريون.

فهذه الأرض مصرية وهؤلاء الدخلاء لم يكونوا ليتعاملوا مع الأرض ولا مع الناس أكثر من أنهم مصدر للارتزاق وهو مايتعارض فى الأصل مع مبدأ المصريين فى التعايش مع الأرض من أجل الأرض.

ويذكر فيما يذكر د. عبد الصبور شاهين فى كتابه مصر فى الإسلام أن

دقلديانوس قد اضطهد المصريين قبل اثنى عشر عاما من وفاته كما أمر القيصر تيودور بهدم جميع التماثيل المصرية عام ٣٨٩ وجميع مايذكر الناس بها واكتفى بتشويه كتابات المعابد المصرية التى كانت من المتانة بحيث لم يقدر على هدمها بسهولة. كما أوضح جوستاف لوبون فى كتابه «حضارة العرب» وهو مايعنى إنتهاكا لكل مايمت للهوية المصرية بصلة. فلم تكن هذه المعابد رمزا للوثنية بالنسبة للحكام الرومان بقدر ما كانت ترمز للمصرية وللدولة المصرية التى انتهى أمرها منذ زمن طويل. فقد أرادوا أن يفعلوا هذا ليدوم وجودهم وليفرض على المصريين للأبد.

والحقيقة ان المصريين قد عاشوا فى مجتمع مختلف عن ذلك الذى عاش فيه الحكام الرومان فلم يختلطوا بهم كما حدث مع الاغريق، فلم تكن هناك الكثير من المصاهرات ولا الاختلاط بالناس ولاحتى الذهاب إلى أدنى درجة من الرأفة فى المعاملة . وإذا كان الإغريق والبطالمة قد ظلوا حكاما لمصر زمنا طويلا فقد مر حكمهم بالعديد من المراحل الاجتماعية فلم يبدوا رغبة فى البداية فى الاختلاط بالمصريين ثم جاءت الظروف والأيام لتفعل فعلتها ويحدث هذا الخلط فى الأوراق ويتزوج المصريون منهم وتظهر حضارة قوية ومختلفة على أرض مصر.

إلا أن روما بكل كبريائها الحربى ظلت بعيدة، ولهذا كان لابد ان تكون مصر فى انتظار فتح جديد على أيدى العرب المسلمين الذين جاءوا إلى مصر وفى ذهنهم قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم «استوصوا بالقبط خيرا فإن لهم ذمة ورحما» وقوله «الله الله فى أهل الذمة، أهل المدرة السوداء السحم الجعاد فان لهم نسبا وصهرا». (٧)

وتسنح أخيرا الفرصة ويصبح المسلمون قوة فى سنوات قليلة ويعود عمرو

بن العاص مرة أخرى إلى مصر قاصدا فتحها على رأس قوة بلغت أربعة آلاف رجل وقيل ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل وفى أذنيه وصية عمر بن الخطاب «سر إنّا مستخير الله فى مسيرك وسيأتيك كتابى سريعا ان شاء الله فان ادركك كتابى آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئا من أرضها فانصرف، وان انت دخلتها قبل ان يأتيك كتابى فامضى لوجهك واستعن بالله واستنصره . (٨)

ويخرج عمرو على رأس جيشه فى ليلة مظلمة ويتسرب إحساس بالخوف إلى نفس خليفة المسلمين لما يعرفه من جرأة عمرو وحبه للإمارة وهو ما أكده لديه الصحابى عثمان بن عفان الذى اعتبر ان خطوة الاقدام على فتح مصر لهى خطوة تستحق إعدادا أكبر.

ويرسل الخليفة عمر إلى قائده عمرو برسالة مع رسول فيمهله عمرو ولايلتقى به حتى يدخل قرية بين رفح والعريش ويدرك أرض مصر.

وتبدأ أول اللقاءات بين الروم والمسلمين ويقال «انه كان بالاسكندرية اسقفا للقبط يقال ابو بنيامين فلما بلغه قدوم عمرو بن العاص إلى مصر كتب إلى القبط ليعلمهم انه لاتكون للروم دولة وان ملكهم قد انقطع ويأمرهم بتلقى عمرو، فيقال إن القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ لعمرو أعوانا. (٩)

ويصل عمرو بعدها إلى بلبيس بعد شهر من القتال ومنها إلى أم دنين فيكتب إلى الخليفة فى المدينة ويسأله المدد فيرسل إليه رجالا صدقوا ماعاهدوا الله عليه وهم الزبير بن العوام والمقداد بن عمرو وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد ويقال انه كان معهم خارجة بن حذافة.

ويدخل عمرو الحصن ومصر كلها بالحيلة وقوة الإرادة ويطلب المقوقس ان

يدخل فى نوع اشبه بالمفاوضات على ان يفرض لكل رجل مسلم مقاتل دينارين ولأمير الجيش مائة دينار وللخليفة ألف دينار على ان ينصرفوا فى مقابلها عن أرض مصر.

إلا أن المفاوضات تفشل. والسبب معروف فهناك فارق بين عقيدة الفاتح وعقيدة الغازى وينتهى الأمر إلى نوع آخر من التصالح لم يكن يمكن ان يخطر ببال المقوقس ولا الرومان الذين بقوا فى مصر لسنوات وسنوات.

وقد ابرم هذا الصلح تحت اسم صلح الاسكندرية فى الثامن من شهر نوفمبر عام ٦٤١، وشروطه:

ان يدفع الجزية كل من دخل فى العقد، ومعروف ان الجزية ديناران على كل ذكر بالغ عاقل. فلايدفع الطفل ولا المرأة جزية واذا دخل قبطى فى الإسلام رفعت عنه الجزية وصار عليه ما على المسلمين من زكاة.

وفى الجزية ضمان للقبط على أموالهم وكنائسهم وأنفسهم ولهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية فهم أهل ذمة لهم ماللمسلمين من حقوق وبهذا لايخرج القبط من ديارهم ولايفرق بينهم وبين أزواجهم ولايطردون من قراهم ولاتؤخذ أرضهم ولاتزداد قيمة الجزية عن دينارين وعلى المسلمين حماية ظهر القبط من عدوهم.

وأما الشرط الثانى فهو أن تعقد هدنة حوالى أحد عشر شهرا تنتهى فى أول بابه القبطى الموافق ٢٨ سبتمبر عام ٦٤٢ للميلاد. وقد جاءت هذه الهدنة عند ابن الاثير اقل من ذلك. والهدف منها مكاتبة الخليفة فى المدينة عما أتفق عليه الطرفان.

ويأتى الشرط الثالث كتأكيد على ألا يترك العرب مافتحوه من مدن

وقرى ولا يسعوا إلى قتال، وأن يكف روم الاسكندرية عن قتالهم.

وأن يرحل جنود الروم بحرا من الاسكندرية ومعهم متاعهم، وألا يأخذ المسلمون أى كنيسة من المسيحيين ولايتدخلوا فى أمورهم الدينية.

كما يسمح لليهود المقيمين فى الاسكندرية وعددهم سبعين ألف يهودى باستمرار إقامتهم وأكثرهم من يهود الشام الذين هربوا من الغزو الفارسى والرومانى.

وأن يبعث الروم رهائن من قبلهم مائة وخمسين من جنودهم وخمسين من غير الجند ضمانا لإنفاذ العقد على ألا يعود فى النهاية جيش الروم إلى مصر أو يسعى لردها. (١٠)

وقبل أن أطوى الصفحات عن أول الأحداث، وقبل أن نبدأ فى سيرة آل البيت فى مصر التى تمهلت طويلا حتى أصل إليها، اتوقف عند نظرية مصرية ظهرت فى السبعينيات قدمها عالم الاجتماع الكبير د. حسن الساعاتى وهى نظرية العادلية وتقوم فى الأساس على ثلاث قواعد وهى العدالة الاقتصادية وسندها الحق، والعدالة السياسية وسندها الحرية، والعدالة الاجتماعية وسندها المساواة.

وإذا كان هذا يعنى شيئا فهو ان عالم الاجتماع المصرى قد جاء بعد كل هذه القرون ليقرر انه لايمكن ان نعيش فى مجتمع لايعرف فيه كل إنسان حقه المادى وحريته فى التعبير عن الرأى والمساواة بين الناس فما بالنا بما جاءت به الفطرة.

فالاسلام فى تقديمه العبقرى لفن التعامل مع الحياة انما يقدم فصل الخطاب الذى لم تعرفه البشرية من قبل بهذا الوضوح والتوازن. فالحق والخير

والجمال والعدل والمساواة والحرية يمكن ان تظل باقة من المعانى المجردة، لولا وجودها فى كتاب الله تعالى والذى جاء بكل فكر للإصلاح وهو ما استوعبه المصريون الذين فهموا أن كل غاز يأتى لابد وأن يقلل من فرص تعاطيهم مع الحياة من حولهم بسلام، فعودة البطريق بنيامين إلى الاسكندرية بعد رحلة خوف طويلة قطعها هربا من التعسف المذهبى الرومانى وتعيين عمرو بن العاص له رئيسا لأقباط مصر إنما تهدىء من نفوس المصريين. فالوسطية والرحمة والمصالحة والتوافق تبدو فى الأصل مفردات مصرية.

فالمصريون هم شعب يعيش بصبر الفلاح ويستنير بحكمة الصحراء لتسير الحياة فى مصر باتجاه واحد كاتجاه النيل من الجنوب إلى الشمال لاتعرف التشتت ولا المفاجأة فهى فى الأصل حضارة مسالمة لاتعرف معنى الاحتلال ففى كل الأزمان كان لمصر مدها الحضارى والدينى والثقافى إلا أن الاحتلال وحتى فى زمن الفراعنة لم يكن كلمة مقروءة فى القاموس المصرى. ولهذا كان لمصر دورها فى خدمة الإسلام والذى بدأت به أول الأحداث.. فماذا حدث بعد ذلك فى بر مصر؟!!.

الفصل الرابع

أول الأيام

ربما كان هذا هو الوقت الذى آن فيه للمصريين - وكما يقولون - أن يهدأوا بعد كل هذا الضغط الكبير والركض المميت فلا بد من استجماع الأنفاس المتقطعة.. فهؤلاء الوافدون العرب قد أتوا بمنهج ربما يكون أفضل من هؤلاء الذين سبقوهم فعلى الرغم من اختلافهم الفعلى عن سكان مصر إلا أن منهج الاسلام الذى أتى به العرب يمكن أن يؤمن موقفا عادلا لجموع المصريين.

وهكذا سارت الأيام بسرعة بعد عودة الأنبا بنيامين الذى صار رئيسا للقبط وبدء المهندس بقطر فى بناء أول جامع للمسلمين فى مصر وهو الجامع العتيق الشهير بجامع عمرو.

فهناك شىء من التمازج والتفاعل حدث فى بر مصر الذى رأى فيه المصريون أن المسلمين أو الحكام الجدد لم يكونوا ليخرجوا عن الإطار الذى قرروه فى البداية فحدث نوع من التعارف على عدم نقض العهد فلم يحدث من الوقائع مثل تلك التى وردت فى أيام حكم الرومان الذين كانوا يتعاملون مع المصريين وكأنهم إرث أو أشياء صامته أو قطع خشبية يتبادلونها فيما بينهم. ففى عرف الرومان وكما أوضحنا لا حضارة تذكر للمصريين ولامتاع ولا حقوق وكأن دماء الهوية قد انسحبت من العروق المصرية. ذلك ان مفردات الحضارة التى كان يؤمن بها الرومان مختلفة عن تلك التى يعرفها المصريون فالحضارة لدى الرومان هى القوة وما يفرضه حق القوة وبالنسبة للمصريين هو كل فعل يصب فى مجالى استزراع الأراضى وإقامة حياة ثابتة وعادلة على ضفاف النهر.

ولهذا جاء وصول المسلمين مبشرا بمتابعة حضارة الأرض مع وجود هذا القدر المفتوح من سقف المطالبات والعدالة إن صح التعبير.

فهناك مواقف قد أثبتت صحة المبدأ الذى يتبناه عمر بن الخطاب ورفاقه فى مصر ومنها استدعاء الخليفة عمر لرجل من زراع قبط مصر يسأله عن مصر وخراجها قبل الاسلام، فقد علم عمر أن مصر كانت تعطى الكثير من الخراج حتى أن المقوقس كان يجمع من المصريين ٢٦ مليون دينار بينما لم يستطع عمرو بن العاص أن يحصل سوى على ١٢ مليون دينار، وهو الأمر الذى شرحه له القبطى حيث أنبأه أنه لا ينبغى الضغط على المزارع ليأتى بالمال قبل أن تزرع الأرض وتجنى الثمار فإنه إن فعلها تعامل مع أرض مصر وكأنه لايريدها إلا لعام واحد. (١)

وأما الموقف الآخر الذى يذكره المصريون لعمر بن الخطاب فهو ذهاب أحد المصريين إليه يشكو إبنا لعمرو بن العاص اعتدى على ابنه بالضرب فأمره عمر بأن يقتص لنفسه من ابن الأكرمين ومن أبيه عمرو نفسه.

ورغم أن هذا الخط من المجادلة ينتمى لحامد سليمان فى كتابه «من القبطية إلى الاسلام... قصة فتح مصر» فإن أفضل ما يحسب له هو مدخله إلى انتشار اللغة العربية والإسلام فى مصر مستشهدا بما ذكره الدكتور حسين مؤنس فى موسوعته «تاريخ الحضارة المصرية».

فبعد فتح العراق مباشرة ـ والرأى للدكتور حسين مؤنس ـ نجد بطون لخم تزحف شرقا وتستقر فى نواحيه وتسرع إليها جماعات أزد اليمن فيكثر عددها حتى غلبت على أرض العراق، ثم زحفت منها فروع غربا وعمرت غربى إيران ثم امتدت إلى خراسان حتى تحولت إلى مستعمرة يمنية عقدت زعامتها لقبائل أزد اليمن وكانوا أكثر القبائل عددا. أما العمال وجندهم فكانت غالبيتهم من قبائل القيسية (شمال الجزيرة العربية) حيث بدأ التنافس بين عرب الشمال وعرب الجنوب اليمنى الذى انتهى إلى صراع

دموى أدى إلى إضعاف الجانب العربى فى فارس وخراسان، ثم انتهت سيادة العرب تماما واللغة العربية بمجئ العباسيين الذين فضلوا الخراسانيين على العرب.

وبدأت اللغة الفارسية تغلب مرة أخرى على ألسنة عرب فارس الذين بقوا هناك حتى نسى الكثيرون منهم لغته العربية وأخذ يتكلم الفارسية...!!

وهذا لم يحدث فى مصر...

فقد كانت القبائل القيسية من عرب الشمال هى الأقلية من العرب المهاجرة لمصر فخلا الميدان لعرب جنوب الجزيرة العربية فسارت فى طريقها محتفظة بقوتها وهيبة لغتها وعروبتها أمام السكان وتمكنت من نشر العربية والاسلام كما فعلت فى المغرب والأندلس.

هذا إلى جانب أن معظم رجال الجيش العربى الفاتح كان من عرب اليمن بينما كانت القيادة لعرب الشمال. ويمكن أن نستنتج ذلك بسهولة إذا رجعنا إلى كتاب «أبو القاسم بن الحكم» عن فتح مصر.. ومن مراجعة أسماء القبائل التى ذكرها عندما كان يتكلم عن خطط مدينة الفسطاط والقبائل التى اتخذت خططا «أى أحياء» بها. فإذا استثنينا أسماء نادرة من قريش وجدنا أنفسنا أمام أغلبية يمنية هى التى ملأت أحياء المدينة فى أول عهدها مثل قبائل حضر موت وسبأ ومهرة ولخم وجزام وغافق ويحصب ومعاقر وغطيف وخولان وغيرهم كثير.

وعلى امتداد العصر الأموى نلحظ أن تيار الهجرة العربية لمصر كان مستمرا ويبدو أن غالبية المهاجرين كانوا كذلك من اليمن، وكان معظم هؤلاء يسكنون الفسطاط. أما المهاجرون من عرب الشمال (القيسية) فكانوا يسكنون ناحية بلبيس وغرب الدلتا «البحيرة الآن» مما خفف من حدوث

صراع يدمر قوتهم كما حدث فى كل من فارس والأندلس. (٢)

ويذكر المؤرخون ومنهم الدكتور حسن الباشا فى كتابه «القاهرة تاريخها وفنونها وآثارها» أن عمرو بالفعل لم يأت بجديد فقد فعل كما فعل المسلمون من قبله عند تأسيس البصرة والكوفة فهناك المسجد وإلى جواره الدار ثم جاءت عملية توزيع الخطط والأحياء بين جماعات القبائل العربية. وقد كانوا فى مصر يبنون الدور بأسماء القبائل العريقة إلى جانب الخطط التى خصصت للجند غير العرب مثل خطة الفارسيين وكانوا من بقايا جند باذن عامل كسرى ملك الفرس على اليمن وخطط الحمروات وقد سميت بذلك لاشتراك بعض الروم وكانوا حمر اللون وبنويشكر وقد نسب إليهم جبل يشكر الذى شيد عليه جامع ابن طولون فيما بعد.

وكانت من أعظم الخطط واوسعها خطة أهل الراية وهم جماعة من قريش والأنصار وقبائل أخرى لم يكن لكل منها من العدد مايتيح لأن ينفرد بخطة فجعل لهم عمرو راية لم ينسبها لأحد فعرفوا بأهل الراية.

وكان بين هذه الخطط دور جماعة من الصحابة اشتركوا فى فتح مصر مثل دار عمروبن العاص ودار الزبير بن العوام ودار يعقوب القبطى ودار جبر القبطى وكانا قد صحبا السيدة مارية القبطية إلى المدينة حين أهداها المقوقس للنبى «صلى الله عليه وسلم». (٣)

وهكذا ظهرت ملامح الفسطاط الأولى مرتكزة على دور اثنى عشر ألف جندى كانوا فى معية عمرو بن العاص حين الفتح، إلا أن هذه الخطط والأحياء كانت تضم أيضا المصريين الذين أقاموا إلى جانب الفاتحين العرب ودارت بهم الحياة بكل تفاصيلها من صناعة وبيع وشراء ومصاهرات ومصالح وإقامة دور وأسواق.

وإذا كان هذا حال المدينة وحال العرب الوافدين فإن أكثر ما يثير القارئ هو ليس تداخل العرب الوافدين مع النفسية المصرية بقدر ما هو تداخل الاسلام مع النفسية المصرية. فإلى الآن لم نتوقف عند الفهم المصرى لهؤلاء العرب الحاكمين وخاصة ان الإسلام قد كان له أكثر من طريق ينتشر من خلاله فهناك من يعطى الفرصة للتجار الذين كان لهم أكبر دور فى نشر الدين عبر تعاملاتهم فى البلاد، فكثيرا ما حط رحال التجار المسلمين فى كل أنحاء الدنيا وذهبوا ليشتروا ويبيعوا وأظهروا مرونة ونبلا فى المعاملات كانت تجمع حولهم القلوب وتشير بصراحة وبوضوح إلى جوهر الإسلام الذى يعتنقونه.

كما أن البلاد التى فتحت ومنها مصر قد شهدت نوعا من التوازن الأخلاقى وتحقيق إلى حد كبير لنظرية العادلية التى تعد فى حقيقة الأمر نظرية مصرية تحمل داخلها الكثير من الفطرة أكثر من كونها قاعدة تعتمد على التحديد العقلى والعملى لمعنى النظرية.

أما الانتقال الثالث فقد حدث عن طريق ظاهرة الولاء والتى كانت ظاهرة إسلامية مرتبطة أشد الإرتباط بطبيعة الإسلام وأخلاقه، وكانت كذلك من أكبر الأسباب فى إسلام الناس طواعية وإختيارا فى إيران وبلاد الترك ثم فى بلاد المغرب والأندلس.

فأهل القرى حينما تمكن الأكاسرة من أرض العراق وإيران كانوا من حيث الوضع القانونى والإجتماعى رقيقا وأقنان أرض للبيت الساسانى وكان كسرى إذا أعطى رجلا من رجاله أرضا أخذها بفلاحيها أو انتقل رهطهم للمالك الجديد... فكان الناس عبيدا لكسرى وأهل بيته وللمقطعين من المرازبة والدهاقين والأجبهيذين وهم رؤساء القرى وجباة أموالها. وكان

الفلاح يزرع الأرض ولايصيبه من خيرها إلا ما يقيم أوده والباقى يذهب لصاحب الأرض وهو سيده ومالك روحه.

فلما جاء الاسلام وأطاح بالأكاسرة والمرازبة والدهاقين أصبح أولئك الفلاحون فى فراغ اجتماعى فالأرض ليست أرضهم ولم يعد لهم وضع معين فى المجتمع لأن سادتهم قد انتهى أمرهم. وأصبح حالهم كحال الواحد منا إذا فقد جواز سفره فى بلد غريب ليست له فيه سفارة أو قنصلية. فكانت دولة الإسلام تستطيع أن تحل محل الأكاسرة ورجالهم. وتعتبر هؤلاء الناس رقيقا لها كما فعل الساسانيون عندما حلوا محل الأكمنيين فى تلك البلاد.

ولكن الاسلام لا يقر هذا الرق ثم ان نفس العربى المسلم عافته فلم تدعى دولة الخلافة ولا جماعات العرب فى المهاجر ملك رقاب الناس، وهنا ظهر الولاء: اجتمع أهل كل ناحية ودخلوا فى ولاء من أرادوا ممن نزل فى أرضهم من قبائل العرب . فصاروا فى ولاء تميم أو معد أو ربيعة أو شيبان أو عبد قيس. ومنهم من دخل فى ولاء الفاتح فنسمع عن موالى خالد بن الوليد وموالى موسى بن نصير وموالى عبدالله بن عامر ومنهم من دخل فى ولاء الخليفة القائم فنسمع عن موالى عبد الملك بن مروان وموالى الوليد وموالى هشام بن عبد الملك . ومنهم من دخل فى ولاء قريش عامة فنسمع عن موالى قريش وهؤلاء هم الذين يقال عنهم فى كتب التراجم «مولاهم» لأن الولاء لم يكن إنتقال رق أو تملك وإنما كان إقامة وضع قانونى لأولئك الناس فى دولة الإسلام.

ومادامت القرية من القرى قد دخلت فى ولاء أحد من العرب فقد أصبح لأهلها وضع قانونى معترف به فى الحياة الاجتماعية والسياسية لدولة الإسلام. وكان هذا الولاء فى حقيقة الأمر تحريرا للناس ورفعا لهم إلى مقام

المواطنين فى دولة الإسلام فإن الولاء يشترط الإسلام، فلا يدخل إيرانى فى ولاء عربى إلا إذا أسلم، ومعنى ذلك أن الولاء وهو نظام عربى اسلامى كان إدخالا للناس فى الإسلام ثم تعريبا لهم بعد ذلك وكان تحريرا للناس وعتقا لرقابهم وردا لكرامتهم الإنسانية. ولعلنا لا نكشف حقيقة خافية عندما نقول: إن الغالبية العظمى من أهل العراق وإيران تخلصوا من الرق وعرفوا الحرية والكرامة الإنسانية مع الفتح الإسلامى. (٤)

ورغم أن هذا الجدل يطول وقد يقبل مناقشات أكثر من تلك التى أوردها الدكتور حسين مؤنس فى كتابه الاسلام الفاتح والذى أوضح فيه دور التجارة والحج والولاء، وأنسب إليها بعض الفضل فيما وصل إليه الإسلام من الإنتشار فى جميع أنحاء العالم إلا أن الكلمة الفصل والقضاء فى الأمر يأتى نتيجة معرفة الناس بالإسلام عند تعاملهم مع من يدينون بهذا الدين.

فقد عرف العرب إتفاقيات وطرق التجارة «الإيلاف» منذ أيام هاشم بن عبد مناف جد الرسول «صلى الله عليه وسلم» الذى سار بالقوافل من مكة إلى اليمن فى الشتاء وإلى بلاد الشام وإلى غزة والعراق وحدود مصر فى الصيف. ولكن متى كان هؤلاء العرب مؤثرين فى غيرهم ومتى كانت هناك طرق للحج ومتى كانت هناك فتوحات ومواقع أو حتى شخصية مستقلة أو مطالب أو رؤية بعيدة عن هذا الكيان البدوى الذى أرخى سدوله لسنوات عليهم. فهل كانوا يعتقدون يوما أن بلاد كسرى التى تقف على هذا السلم الأعلى من سلالم الحضارة أو مصر التى كانت تقدم شكلا خاصا من الاكتفاء النفسى يشكل الحياة فى بر مصر والذى يجعل أى دين أو لغة وافدة لابد أن تحمل قدرات خاصة لاختراق هذا الحزام القوى الذى أقامته الحضارة الفرعونية ثم الديانة المسيحية القبطية التى استطاعت أن تصمم وتلتحم مع الملامح المصرية للمحافظة على كل ماهو مصرى وأصيل. يمكن ان

تقبل الإسلام، صحيح أنه كان من بين المصريين من لم يؤمن بالديانة المسيحية ولكنه لم يكن يقف بعيدا عن الآخر المؤمن إلى حد التباعد فالقيم المصرية كانت واحدة. وهكذا فان الاسلام إذا كان قد نجح في مصر وأضاف إليها فإنما قد نجح بتقديم فكرة السماحة وتغليب الفطرة التي كانت قوام الحضارة المصرية القديمة إلى جانب الأسوة الحسنة والحكمة التي كان يقدرها كل المصريين. وهكذا سار تيار الأسلام ناعما منسابا وغير متعارض مع قبطية المصريين في ذلك الحين ومع ديانتهم المسيحية.

أما الرومان القوة الكبرى الثانية في العالم والتي كانت تتقاسم مع الفرس مناطق القوة والتواجد الواثق فلها قصة أخرى، فهؤلاء قد انتهجوا منذ البداية اللجوء إلى منطق القوة وليس قوة المنطق ليبسطوا نفوذهم على العالم القديم فقد عاش الرومان على أنقاض منطق التميز العقلي الاغريقي والذي وحتى لفظ أنفاسه الأخيرة على أيدي الرومان لم يتنازل عن قدرته في وراثة الكثير من الحضارات السابقة عليه أمثال الحضارة المصرية القديمة .

ولهذا كله نقول ان مصر كانت لها خطوتها وحظوتها الحضارية المتفردة التي تجعل فكرة القبول الحسن فكرة موضوعية لا تشتت ولا جدال فيها، ولهذا كان وجود عمرو جزءا منها فلم تكن تتم محاسبته أو وضع إطار بشكل موضوعي لعمله إلا من خلال إلتزامه بمبادئ الإسلام وبمبدأ الحساب الصعب الذي كان يلتزم به عمر بن الخطاب والذي يفرضه إحساسه اليقظ بالعدالة والذي يصل إلى ابعاد من طرق باب الخوف الشديد الذي كان معروفا عن عمر بن الخطاب العادل الأمين. ولهذا فقد كان إطلاق يد عمرو بن العاص في مال مصر وفي خراجها يبدو أمرا غير مقبول في منطق عمر بن الخطاب ولهذا عين عبدالله بن سعد بن أبي السرح ليقوم على الخراج في الصعيد. كما أنه لما رأى أثر النعمة والاحتفاء بالحياة المصرية قد بدأ يظهر

على عمرو، خشى عمر أن يعتبر عمرو فتح مصر بابا من أبواب الثراء وتحقيق المصلحة الشخصية وأراد ألا تكون لعمرو تجارة منفردة فى البلاد يفرضها عليها من خلال وجوده كوال فقرر أن يرسل إليه ابن مسلم ليقاسمه ماله واستمر هذا الحال حتى انقضى حكم عمر بن الخطاب ليأتى عثمان بن عفان رضى الله عنه ويثبت أقدام أخيه فى الرضاعة عبد الله بن أبى السرح ويطلق يديه فى بر مصر كلها فيكون الخراج مهمته، وهو الأمر الذى لم يقبله عمرو الذى عزله عثمان بن عفان فيما بعد ليترك كل شئ بين يدى عبد الله بن أبى السرح وهو الموقف الذى كان يمكن أن يفتك بأى نفس فما بالنا بعمرو الذى يشعر وكأن مصر يملكها وتملكه، وما بال عمرو وهو رجل الحرب والدهاء الذى سخر كل شئ فى حياته من أجل الوصول إلى مصر.

ويخرج عمرو بن العاص من مصر وهو ينظر إليها نظرة المستجير الذى يراجع من أحب فلعله يعود إليه إلا أن هذه الرومانسية الشديدة لم تكن لتستوقف عمرو. فالمشكلة أن مصر هى الهدف والطريق فى الوقت ذاته ولابديل عن الإنتظار. ولأن الحرب لم تكن قد وضعت أوزارها بعد فمالبثت الظروف أن فرضت تواجدا جديدا لعمرو فى مصر عندما أعاد الرومان الكرة وهاجموا الاسكندرية بهدف استرجاع سلة الغلال الرومانية الأصلية، فعندما انفرط الأمر من بين يدى عبد الله بن أبى السرح حاول الرومان من خلال أسطول قوامه ثلاثمائة سفينة أن يستعيدوا الأسكندرية عاصمتهم القديمة، وهنا عاد إليهم عمرو واستبسل فى المعركة وكأنه يحافظ على مجد شخصى صنعه على أرض مصر وفتحت أسوار الإسكندرية، وعاد للعرب المسلمين حظوتهم فى مصر. وفى الأسكندرية التى كانت حسب وصف عمرو الأول «ثلاث مدائن بعضها فوق بعض تختطف الأبصار من شدة بياض حيطانها وفيها من الأعمدة الرخامية ما لايحصى وبها منار من جملة عجائب الدنيا

وليس فى سائر الدنيا أعجوبة تشاكله وبها عمود يقال له عمود السوارى ارتفاعه سبعون ذراعا وقطره خمسة أذرع وله قاعدتان طول كل واحدة اثنا عشر ذراعا.

فبالمدينة أربعة آلاف دار محكمة البناء مفروشة بالرخام الملون وفى كل منها حمام يختص بها. ووجدت بها أربعمائة ملهى برسم الملوك ووجدت بها اثنى عشر ألف بقال يبيعون البقل الأخضر من بعد العصر إلى العشاء، ووجدت بها مائة ألف مركب من مراكب الروم الكبار، ووجدت بها أربعين ألف يهودى وجبت عليهم الجزية ومن الروم والقبط ستمائة ألف إنسان سوى النساء والصبيان، ووجدت على المدينة ثلاثة أسوار مانعة فأعان الله تعالى وفتحت هذه المدينة على أيدى المسلمين. (٥)

وبالفعل يمكن ان نقول أنْ عمرو كان منذ البداية يعرف ما بين يديه من الخير إلا أن عودته الثانية ما لبثت أن اعتبرت بارقة أمل أعتقد بعدها أن كل شئ سيعود إلى حالته الطبيعية وكأن ما حدث بسبب عبد الله بن أبى السرح لم يحدث ،إلا أن الحقيقة لم تكن كذلك.. فقد خرج من مصر مرة ثانية.

الفصل الخامس

الصدمة

إن تواجهك صعاب أو أن يعترى الأمر كثير من المتغيرات التى لم تكن فى توقعات أحد من شدة ظلاميتها وقسوتها.. فهذا فى حد ذاته محنة قد تحملها لك أيام لم تكن فى الحسبان.

ولكن أن تعترض الصعاب كل الطرق وتصبح هى نفسها الطريق الوحيد فى الحياة الذى لابد أن نجتازه، فهذه ليست محنة ولكنها اصطدام كبير بالواقع وهو مايمكن أن نلخصه فى كلمة واحدة هى: الصدمة.

ويبدو أن هذه الصدمة هى ما واجه عمرو بن العاص وأبو سفيان بن حرب الذى قد سبق وأشرنا إلى لحن المنافسة الذى كان يعيش فى أذنيه. فهى منافسة قد سبقت عمره بأعمار، فمازلنا نذكر تلك المباهاة بين عبدالدار وعبد مناف وتنافس هاشم وأمية الذى ظل أبو سفيان يعيش فيه وكأنه جزء من هذا التاريخ، فهو رجل معروف بنعرته القبلية ويحب السيادة الذى يسيطر على كل خلجاته، فلم يكن يحب أن يتفوق بنو هاشم على بنى أميه.. ولا أن يخرج أمية إلى الشام بعد أن فقد أى أمل فى الزعامة فى وجود هاشم الذى انفرد بزعامة بنى عبدمناف.

ولعل ارتفاع الخصومة بين أبى سفيان وبنى هاشم تصنعه أيضا الصدفة كما أشار الكاتب الكبير عباس العقاد فى كتابه «الحسين أبو الشهداء» حيث شاءت المصادفات زمنا من الأزمان أن يظل وحده على زعامة قريش فى حربها للنبى عليه الصلاة والسلام، فقد مات الوليد بن المغيرة زعيم مخزوم وزعماء تيم وبنى عدى وغيرهم من البطون القرشية الصغيرة فضلا عن تلك الجموع التى دخلت الإسلام.

وهكذا بقى أبو سفيان وحده على رأس الزعامة الجاهلية والزعامة الأموية فى منازلة النبى ومن معه من المهاجرين والأنصار. وبلغ من تغلغل العداء

فى هذه الأسرة للنبى عليه الصلاة والسلام أن أبا لهب عمه الذى كان أوحد أعمامه فى الكيد له والتأليب عليه إنما جاءه هذا من بنائه «زواجه» من أم جميل بنت حرب أخت أبى سفيان التى وصفها القرآن بأنها «حمالة الحطب» كناية عن السعى فى الشر وتأجيج نار البغضاء.

ثم فتحت مكة فوقف أبو سفيان ينظر إلى جيش المسلمين ويقول للعباس بن عبدالمطلب: «والله ياأبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيما» فلما قال العباس: «إنها النبوة!» قال «نعم إذن!».

وقد اسلم أبو سفيان وابنه معاوية عند فتح مكة وكان إسلام بيته اعسر إسلام عرف بعد فتحها، فكانت زوجه هند بنت عتبة تصيح فى القوم بعد اسلامه: «اقتلوا الخبيث الدنس الذى لاخير فيه.. قبح من طليعة قوم.. هلا قاتلتم ودفعتم عن أنفسكم وبلادكم!..»

وظل أبو سفيان إلى مابعد إسلامه زمنا يحسب غلبة الإسلام غلبة عليه فنظر إلى النبى مرة وهو بالمسجد نظرة الحائر المتعجب وهو يقول: «ليت شعرى بأى شىء غلبنى!»، فلم يخف عن النبى عليه الصلاة والسلام معنى هذه النظرة وأقبل عليه حتى ضرب يده بين كتفيه وقال له: «بالله غلبتك يا أبا سفيان».

وكان فى غزوة حنين يشهد هزيمة المسلمين الأولى فيقول: «ماأراهم يقفون دون البحر!» . وقيل إنه كان فى حروب الشام يهتف كلما تقدم الروم «إيه بنى الأصفر» فإذا تراجعوا عاد فقال: «ويل لبنى الأصفر!»(١).

ويمكن بقراءة ماكتبه العقاد أن نفهم هذا الجو من التنافس الشخصى الذى عاش فيه الهاشميون والأمويون وإن كانت هذه المنافسة لايمكن أن تشرح لنا وحدها سبب تراجع أبو سفيان بن حرب عن الدخول فى الإسلام

كل هذا الزمن حتى فتح مكة، فالحقيقة أنه لم يكن تراجعا ولكنه تشبث بما أورده عن الآباء والأجداد من قصص وتاريخ، والذى كان يقف حائلا بينه وبين اعتناق أى دين جديد.. والحقيقة أيضا التى لانستطيع أن ننكرها أن هذا لم يكن موقف أبى سفيان وحده بل موقف العديد من زعماء القبائل والعشائر الذين كانوا يجدون حرجا فى صدورهم ورغبة فى الامتناع عن الخوض فى قصة هذا الاعتناق بل وقد ذهب بهم الأمر إلى إعلان الحرب على من يجدونه مخالفا لهم وكأنهم قد ألقوا بعقولهم فى غياهب الماضى.

وليكن حديث د. عائشة عبدالرحمن فى كتابها «بنات النبى عليه الصلاة والسلام» توضيحا لهذا التفسير الذى قد يغيب عن بعض الأذهان ونحن نفسر قصة هذا العداء.

فكما تقول «كان تكريم الآباء تقليدا متبعا، فمن ارتاب فى هذا فليذكر أن العرب يبدأون تاريخهم الدينى بقصة جدهم الذبيح الذى جاد بالحياة طاعة لأبيه وتجنيبا له من ذنب عصيان الخالق، ثم يختمون تاريخهم الدينى فى الجاهلية بقصة بنى عبدالمطلب الذين ترددوا فى طاعته يوم أخبرهم بنذره ليذبحن أحدهم لله عند الكعبة لو بلغوا عشرة، بل لبوا طائعين ومضوا يحملون قداحهم إلى الكعبة حيث وقفوا هنالك بجانب أبيهم الشيخ ينتظرون أيهم يكون الذبيح.

ولنذكر كذلك أن العرب لم يجدوا مايبررون به عبادتهم للأوثان بعد أن دعاهم محمد - صلى الله عليه وسلم - إلى التوحيد إلا أنهم وجدوا آباءهم لها عابدين.

ومانقموا على محمد صلى الله عليه وسلم شيئا كما نقموا عليه أن شتم آباءهم وسفه أحلامهم وعاب آلهتهم بل ان أبا طالب نفسه - عم النبى وكافله

ـ ود لو اتبع ابن أخيه لولا وجد غضاضة فى مفارقه دين آبائه، فقال معتذرا: «أى ابن أخى أنى لا استطيع أن أفارق دين آبائى وماكانوا عليه، ولكن والله لايخلص إليك بشىء تكرهه مابقيت ـ السيرة ١/ ٢٦٤

وكذلك فعلت العرب البائدة فى سالف الحقب وغابر الدهور: ردوا رسلهم بمثل ماردت به قريش رسولهم، فقوم عاد قالوا: «أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ماكان يعبد آباؤنا ؟»

«وقوم شعيب قالوا: «ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك مايعبد أباؤنا.. إنك لأنت الحليم الرشيد!»».

واتل عليهم نبأ ابراهيم اذ قال لأبيه وقومه: ماتعبدون قالوا: نعبد أصناما فنظل لها عاكفين، قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون» سورة الشعراء (٦٩).

هم الآباء دائما: سنتهم عبادة ودينهم ميراث واتباعهم فرض محتوم»[٢].

وإذا كان ماقالته الدكتورة بنت الشاطىء إضافة وليس اختلافا عما ساقه العقاد من حجج مبدأ المنافسة فإن الأمر سار هكذا فى نفس ابى سفيان، فقد كان يعتقد أن الإسلام إذ جاء ليسلبه حقه فى الزعامة التى طالما قاتل من أجلها وإنه إذ جاء ليسلبه دين الآباء الذين كان لهم الفضل فى هذا التنافس والحماسة المتأججة فى عقله حتى أنه عندما كرّ الكفار على المسلمين فى أحد وقف أبو سفيان على الجبل وصرخ بأعلى صوته: «إن الحرب سجال يوم بيوم بدر. أعلى هبل» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر: قم ياعمر فأجبه فقل: «الله أعلى وأجل، لاسواء، قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار»[٣].

ولهذا فلم تكن فى ظل الجديد من الأحداث وانتصار الإسلام أن تقف

هذه المنازعات التى افتعلها أبو سفيان منذ دخوله فى مسار الزعامة فى مكة حائلا فى طريقه، ولهذا حاول وحتى فى اكثر اللحظات صعوبة أن يتماسك وأن يستمر فى دور سيد قريش الذى لايخاف.

وبعد أحد وحتى بعد صلح الحديبية ودخول بنى بكر فى عهد قريش ودخول خزاعة فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وقتال بنى بكر لخزاعة ذهب أبو سفيان إلى المدينة واتجه إلى ابنته أم حبيبة زوج الرسول الكريم فكرهت جلوسه فى بيت وفراش زوجها، فما كان منه إلا أن ذهب إلى الرسول وحاول أن يجدد العهد وأن يوسط هذه المرة أقرب المقربين إلى الرسول وهو صديقه أبو بكر الصديق ثم الأقرب إليه رحما عثمان بن عفان فلم يفلح إلى أن أتى أخيرا على بن أبى طالب كرم الله وجهه الذى نصحه بأن يُجر بين الناس ثم يلحق بأرضه.

ورغم أن نصيحة سيدنا على كانت لها دلالتها التى فهمها أبو سفيان فقد حان أمر فتح مكة وعلم من نيران معسكر المسلمين انهم قد جاءوا بعد نقض العهد، وفد أجره العباس عم الرسول، وأسلم بعدها أبو سفيان ولامفر، إلا أنه حتى فى إسلامه كان يجرى وراء مجده الشخصى. وهذا ما كان يفهمه ويدركه جيدا عم النبى العباس الذى يعرف الكثير عن أبى سفيان وعن دخائل نفسه فطلب من سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أن يجعل له شيئا فهو رجل يحب الفخر.

فجعل الرسول من ضمن عهده أنه من دخل دار أبى سفيان فهو آمن مثله كمثل من دخل المسجد أو ألقى سلاحه وأغلق بابه.

ويدخل الإسلام إلى مكة ومن بعدها مدينة بعد مدينة حتى ليبلغ الكثير من الشعب التى كان بلوغ المرء إليها من الصعاب، ولايستطيع أبو سفيان

إلا الصمت وانتظار الفرصة حتى إذا توفى الله الرسول صلى الله عليه وسلم وبايع الناس أبا بكر بينما كان سيدنا على بن أبى طالب فى شغل بجهاز الرسول صلى الله عليه وسلم قبل ان يوارى الثرى ذهب إليه أبو سفيان وطلب أن يبايعه خليفة ولو شاء لأطاح بالأمر الذى استتب لأبى بكر الصديق، فما كان من على بن أبى طالب إلا أن زجره واعتبر أنه إنما جاء ليشعل نار الفتنة بين صفوف المسلمين فى هذا الوقت الحرج.

وأما عمرو بن العاص أو الآخر الذى شعر بالصدمة وبأن الأرض تهتز من تحت قدميه فهو الشخص الذى تركناه سلفا وتوقفنا عن حكايته بعد أن ترك أرض مصر وهو غاضب من عثمان الذى نصر أخاه فى الرضاعة عبدالله بن سعد بن أبى السرح وأطلق يديه فى بر مصر.

فقد كان لعبد الله تاريخه الذى يعلمه عمرو تماما، وقد أسلم قبل فتح مكة وكان مؤتمنا ممن يكتبون الوحي ولكن لشيء فى نفسه أراد أن يبدل ماكتب ثم ارتد وهرب إلى مكة حتى أدرك يوم فتحها. وقد أهدر الرسول صلى الله عليه وسلم دمه فلم يجد أمامه وقتها إلا عثمان أخيه فى الرضاعة ليستأمن له الرسول، وكان مثله فى هذا مثل هند بنت عتبة التى أمر الرسول بقتلها لما فعلت من قتل وتمثيل بعمه حمزة.

إلا أن عبدالله بن أبى السرح لم يكن لتنتهى قصته عند هذا الحد فهو أحد ولاة الأمصار الذين أشعلوها حربا ضد عثمان بتجاوزاتهم، ومهما قيل عن محاولة عبدالله بن أبى السرح بمواصلة الفتوحات فى شمال أفريقيا فإن هذه المحاولة من التوازنات التى حدثت سياسيا - إن صح التعبير - لم تكن لتقارن بما لم يستطعه عبدالله فى مصر.

فهو فى النهاية واحد ممن كانوا حول عثمان بن عفان مثله مثل معاوية بن

أبى سفيان ومروان بن الحكم . كان ماكان من حديث عبدالحميد جودة السحار « «عن أهل بيت النبى» من أنه أكثر ما أثار الناس ماكان من عبدالله بن أبى السرح عندما اعتدى بالضرب على من أتى إليه من المصريين شاكيا، فكرهه أهل مصر وأرادوا أن يشتكوا أمره.

وهكذا سارت الأيام بعهد سيدنا عثمان بن عفان حتى ثار عليه جمع لاستعماله أمثال مروان بن الحكم ومعاوية بن ابى سفيان فقتل عثمان وكانت فتنة ودفن فى سكون الليل.

وإن كانت قتلته البشعة ودفنه على هذا القدر من العجلة لم تكن لتوقف نزيف الدم ولامن يريدون أن يدخلوه حيا أو ميتا فى إطار مصالحهم الشخصية، فما كان لمعاوية فرصة أسنح من هذه ليتباكى أمام الناس وليضع قميص عثمان على منبر دمشق ليراه الناس فى الشام وليسأل الناس ثأر الله.

وبدا الأمر الآن أكثر وضوحا فما قاله أبو سفيان من أن لمحمد ملك عظيم كانت كلمة تتردد فى أذنى معاوية.. وماأراد معاوية عند استرجاعها فى نفسه إلا استرجاعا لحقه فى الزعامة وتحقيقا لما يرغب فى ملك أعظم .

وهكذا سارت الأحداث بعجلتها الجهنمية وأصبح البحث عن رجال لمعاوية هو الهدف التالى، ولم يجدوا وقتها أقرب إليه من عمرو الذى جمع ابنيه عبدالله ومحمدا ليرى رأيهما فيما عرضه عليه معاوية من أن يأخذ صفه لاسترجاع حقه فى الزعامة وإقصاء الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه فيقول له عبدالله: «أرى أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قبض وهو عنك راض والخليفتان من بعده وقتل عثمان وأنت عنه غائب، فقّر فى منزلك فلست مجعولا خليفته ولاتريد أن تكون حاشية لمعاوية على دنيا قليلة

أوشك أن تهلك فتشقى فيها. ويقول محمد: أرى أنك شيخ قريش وصاحب أمرها، وأن تصرم هذا الأمر وأنت فيه خامل تصاغر أمرك فالحق بجماعة أهل الشام فكن يدا من أياديها واطلب بدم عثمان، فإنك قد استنمت فيه إلى بنى أمية.

فيقول عمرو: أما أنت ياعبدالله فأمرتنى بما هو خير لى فى دينى، وأما أنت يامحمد فأمرتنى بما هو خير لى فى دنياى وأنا ناظر فيه (٤).

يستمع عمرو إلى الحديثين ويأخذ جانب محمد ابنه الذى يشبهه فى الكثير من أمور الدهاء وحب الحياة وربما لأن فى الأمر ما يدعوه إلى إتباع معاوية فقد كانت مصر هى أكبر من يدعوه لاتباع هذا الرأى وللانقياد لمعاوية ورأيه غير الصائب، فقد قالها عمرو صريحة لمعاوية «لاأعطيك دينى حتى آخذ دنياك»(٥). فحصل عمرو على مصر طعمة له كما قيل مقابل دور متفق عليه.

وحتى لو لم يختره معاوية عند التحكيم بينه وبين سيدنا على بن أبى طالب، وحتى لو كان الإمام على قد اختار الأشتر أو عبد الله بن عباس وهو الأكثر دهاء بدلا من أبى موسى الأشعرى الذى اختاره قومه فإن الأمر بالنسبة لعمرو لم يكن يعنى أكثر من العودة إلى مصر التى أصبحت بالنسبة له مسألة حياة أو موت، فقد سارت الأمور إلى الأسوأ وكان ما اعتبره عمرو بالصدمة لايعدو شيئا مقارنة بما أحسه الناس بعد التحكيم الذى خدع فيه عمرو أباموسى وخلع عليا وثبت معاوية.

إلا أن الأمر لايمكن اعتباره بالنسبة لهؤلاء ممن أخذوا جانب الامام على بالصدمة ولكنه الاحتساب، فلعل هذه الكلمة هى الأنسب عند وصف هذا الاختبار. فالاحتساب كلمة الايمان. يلجأ إليها من تعرف قلوبهم معنى

عدالة السمـاء أما الصدمة فلا تعد فى عـرفهم وفقههم أكثـر من إختبـار طارىء يعقبه بلا شك إحتساب.

وأمـا بر مـصـر والمصريون فلم يكونوا بعـيـدين عن هذه الأحداث، لافى الفـتنة ولاصفين ولاالجمل، فقد كان قيس بن سعد مع تطور الأحداث واليـا على مصر وكان له من الحنكة والذكاء مايعالج به الأمور، إلا أن معاوية كان قد رغب منذ البداية أن يعزله عن على فأشاع أنه من حزبه وأنه مع معـاوية قلبا وقـالبا، وقد جازت الخدعة على سيدنا على بن أبى طالب فعزله وعين مكانه ربيبه محمد بن أبى بكر .

وقد كان المصريون يحبون عليا إلا أنه لم يكن ليصلح لمصر إلا قـيس بن سعد والأشتر. وهذا ماكشفت عنه الأحداث. وبالفعل يكتب سيدنا على إلى الأشتر، ففى رأى الامـام أن مـحـمد بن ابى بكر إذا خرج عليـه خوارج فـلانه غلام ليس له تجربة بالحرب، والأجدر بمصر ان يذهب إليها الأشتر، فليس لها سواه إلا أن معاوية قد استطاع أن يصل إلى الأشتر عن طريق الحيلة وكأنه يقرأ ما فى نفس علي فـيخرج رجل يعـترض طريق إليـه بشربة من عـسل قد دسّ فيـها السم ويموت الأشتر ليصبح موته إشـارة واضحة لعمـرو بان الطريق أمامـه قد أصبح مفـتوحا من جديد إلى مـصر، فـيندفع محمد بن أبى بكر مدافعا إلا أن ابن الصديق يقتل.

وبعدها حيث يندفع يمر كثيـر من الوقت حتى يجتـمع نفر من الخوارج ليقتلوا عمرو وعليا ومعـاوية وليختار الناس لهم إماما من بعدهم، فقد كان الثلاثة فى رأى هؤلاء هم السبب فى فرقـة المسلمين، ومن ثم فـان قـتلهم هو الحل الوحيـد للخلاص من هذه المحنة، ولكن يحدث ان يفشـل من أراد قـتل معـاوية فى النيل منه وأما عـمرو بن العـاص فقـد شعـر بألم فى بطنـه فـأمر

غيره أن يصلى بالناس فأخطأ القاتل وقتل من صلى بالناس، وأما الأخير عبد الرحمن بن ملجم فقد قتل الإمام على. ويرحل الإمام وهو يقول: اللهم إنك أبقيتنى فيهم ماشئت أن تبقينى ثم قبضتنى وتركتك فيهم فإن شئت أفسدتهم وإن شئت أصلحتهم». فلم يكن الامام على كرم الله وجهه فى حقيقة الأمر بالشخصية العادية التى لايتوقف عندها التاريخ طويلاً بل كان شخصاً ممن كان الإسلام عقيدتهم ومنهجهم لايخافون فى الله لومة لائم يقاتل من أجل الحق واستقرار الفضيلة فى مجتمعه. فربما لم تكن الفرصة قد اتيحت لى لكى اتوقف طويلاً عنده بالقراءة والتحليل ولكنه بانسانيته العذبة كان يبدو واضحا منذ فجر الإسلام بشخصيته الواثقة القوية، فمنذ كان على بن أبى طالب صبيا فى بيت الرسول صلى الله عليه وسلم وحتى وفاته وخلال هذا الزمن الذى أراد الله تعالى له أن يحياه كان علامة فارقة ومثلا أعلى وحتى فى كلماته الأخيرة.. وان شئت أفسدتهم وان شئت اصلحتهم.

ثم يدعو على للحسن والحسين ويقول: أوصيكما بتقوى الله ولاتبغيا الدنيا وإن بغتكما، ولاتبكيا على شىء زوى عنكما وقولا الحق وارحما اليتيم وأغيثا الملهوف واصنعا للآخرة وكونا للظالم خصما وللمظلوم ناصرا واعملا بما فى الكتاب ولاتأخذكما فى الله لومة لائم (٥).

حقا كانت كلمات الإمام الذى كان بليغا وصائبا حتى الموت هى خلاصة النجاة فى هذا العالم.. فلاهزمته عبرة ولاكلمة ولاأخذت منه هزيمة ولاأضاف إليه انتصار.. مات لتكتب له الشهادة وليستريح من قومه الذين طالما دعاهم فلم يستجيبوا.

أما عن الحياة فلم تكن لتتوقف، ولم يكن لهذه المأساة أن تغلق أبوابها

فقد أبت إلا أن تتم فصولا.. وليكن هناك معنى آخر للاحتساب، وأما مصر فلها أيضا فصول وفصول فى هذه القصة الأخيرة..

الفصل السادس

الاحتســـــاب

ذهب الإمام على.. وبقيت كلماته وأعماله وما يحسب له.... وبقى من ضمن ما يحسب له الأبناء.

ذهب الإمام على بن أبى طالب «كرم الله وجهه» وجاء من بعده الابن الأكبر الحسن. ولم يكن فى الأمر توريث حتى لا يعتقد أحد أن المنافسة بين هاشم وأمية تتكرر كما أراد أبوسفيان أن تكون بينه وبين محمد وكما أراد أن يكسبها ابنه معاوية ويصبح الوريث لهذا الملك العظيم الذى تمناه.

فالحسن لم يتقدم فى ملك على ولكن القصة كلها أنه كان الأجدر بها بعد على وقد ذهب إليه قيس بن سعد بن عبادة ليبايعه ومن بعده الناس.

وكيف لايكون الأفضل وكل إنسان وليد بيته وابن آبائه وقد كان أبواه على بن أبى طالب كرم الله وجهه الذى سبق وذكرنا بعضا من مواقفه وفاطمة الزهراء رابعة وأصغر بنات الرسول صلى الله عليه وسلم والأقرب إلى قلبه، فلم تكن فاطمة مثل زينب ورقية وأم كلثوم أخواتها البنات اللاتى سبقنها عمرا وعشن أياما أكثر هدوءا فهى وكما أسمتها الدكتورة بنت الشاطئ «صاحبة الحظ الأوفى من الألم العبقرى فكتب لها أن تشهد الحرب المقدسة وتصلى نارها منذ طفولتها الباكرة وتعيش دون أخوتها جميعا حتى يجود أبوها البطل صلى الله عليه وسلم بأنفاسه ويلحق بالرفيق الأعلى... وكانت لذلك كله أهلا [1]ومعنى هذا أن النهاية كانت أيضا مختلفة عن أخوتها وأن الله تعالى قد اختار لها بداية ونهاية مختلفة رغم أنها كانت تعيش مع أخوتها تحت سقف واحد وفى رعاية نفس الأب والأم.

كانت الحياة لاتسير بخطى ناعمة مع فاطمة بل أسرعت بها الخطوات منذ البداية فقد ولدت فى بيت تتفاعل فيه الأحداث وتجعله يختلف عن أى بيت آخر من بيوت قريش وتجعله أيضا منذ البداية فى خلاف مع كثير من البيوت القرشية.

ولذلك فقد أهلتها الحياة لأن تدفع عن أبيها القذر الذى كان القرشيون يرمونه به، وهى مازالت فى الخامسة وهى التى ماتت عنها أمها وهى مازالت فى سن الصبا وبقيت فى دار أبيها مع أختها أم كلثوم حتى كتب لهما الهجرة إلى المدينة وهو الطريق الذى كان صعبا وقفرا وكان يحمل الخوف والترقب فى كل خطوة حتى تمثل لها الخطر فى رجل من أعداء أبيها نحر الأبل التى كانت تحمل عنهما مشقة السفر فاضطرت إلى أن تصل المدينة على قدميها وهى خائرة القوى.

وأما سنوات الصبا والشباب الأول فقد كانت فيها كما كانت فى أيام طفولتها مع أبيها وحوله. ولطالما تقدم إليها علية القوم من المؤمنين ومنهم أبو بكر وعمر، إلا أن عليا كان هو الرجل الذى عاش دائما فى صحبة أبيها منذ طفولته فهو أيضا معه وحوله وهو القريب.

وقد أراد الله تعالى أن يختار لها القريب عن البعيد، وتقدم على بن أبى طالب لخطبتها ووافق الرسول «ص» وإن حسبعلى بن أبى طالب أن كلماته الأولى معه لم تكن لتعطيه فصل الخطاب واثلاج الصدر وانتصار القلب وهو المحارب الذى لم يكن ليتصور أن يكون أمر خطبته أصعب عليه من أية حرب خاضها. فالأمر لم يكن أمر الأربعمائة مثقال من فضة التى رضى بها الرسول صلى الله عليه وسلم مهرا لفاطمة ولا الدرع التى أصابها على من غزوة بدر ولا لأنه كان فقيرا معدما لا يملك سواه، فالأمر كله ليس بهذه السهولة. فالعروس كانت فاطمة أم أبيها وابنة الرسول «ص» وأصغر بناته التى ظلت كل سنوات صباها وطفولتها فى صحبة والدها الذى كان يصعب مقارنته بأى إنسان آخر، فمن كان يأخذ مكان قوامة الأب كان لابد ان يكون على قدر هذه القوامة. ولذلك فان القرار لابد أن يكون صعبا حتى ولو كان هذا الشخص هو على بن أبى طالب.

وبعدها كانت الخشونة والزهد فى الحياة هى ما فرضته الأيام عليهما ولكنهما وبأى حال لم يحبطا من عزيمة الزوجين اللذين كانا يستعينان على تعب الأيام بتسبيح الله تعالى فى نهاية كل صلا ة عشرا ويحمدانه عشرا ويكبرانه عشرا. وعندما يأويان إلى فراشهما كانا يسبحانه ثلاثا وثلاثين ويحمدانه ثلاثا وثلاثين ويكبرانه ثلاثا وثلاثين كما علمهما محمد صلى الله عليه وسلم.

وحتى فى اللحظات التى كان يقسو فيها على نتيجة شخصيته القوية الآسرة أو تلك اللحظة التى أخطأ فيها وحاول أن يرتبط فيها ببنت عمروبن هشام المخزومى كانا لا يلبثان أن يلتقيا من جديد على خير.

وأما الأبناء فقد كان بكرهما الحسن الذى ولد فى السنة الثالثة من الهجرة ثم الحسين الذى مالبث أن جاء الدنيا بعد أخيه بعام واحد ثم زينب فى العام الخامس من الهجرة وأم كلثوم فى العام السابع. وقد عاشوا جميعا فى ظل الوالد الرسول الذى سأله يوما على: أيهما أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته الزهراء أم زوجها على فيجيب الرسول الكريم: «صلى الله عليه وسلم»: فاطمة أحب إلى منك وأنت أعز على منها. (٢)

بالطبع لم يكن لأى كتاب من كتب السيرة النبوية ليخلو من مواقف بين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وابنته فاطمة وابنيها الحسن والحسين وإيقاظه لآل البيت لصلاة الفجر وضحكه ومرحه مع الحسن والحسين وحتى كلماته الأخيرة لفاطمة عن أجله الذى قد حان وعن لحاقها السريع به . وعندما ماتت الزهراء وقف سيدنا على كرم الله وجهه يناجيها ويناجى الرسول صلى الله عليه وسلم بأرق مناجاة يمكن أن تقرأ وأن تسمع فى سكون الليل عند البقيع، وهو يقول.

«السلام عليك يارسول الله عنى وعن ابنتك النازلة فى جوارك والسريعة اللحاق بك. قلّ يارسول لله عن صفيتك صبرى ورق عنها تجلدى، إلا ان لى فى التأسى بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك موضع تعز. ولقد وسدتك فى ملحودة قبرك وفاضت بين نحرى وصدرى نفسك. إنا لله وإنا إليه راجعون. لقد استرجعت الوديعة وأخذت الرهينة، أما حزنى فسرمد وأما ليلى فمسهد إلى أن يختار الله لى دارك التى أنت بها مقيم وستنبئك ابنتك بتضافر أمتك على هضمها فأحفها السؤال واستفزها الحال هذا ولم يطل العهد ولم يخل منك الذكر والسلام عليكما سلام مودع لاقال ولا سئم، فإن إنصرف فلا عن ملالة، وأن أقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين. [٣]

فهذه كانت كلمات على لزوجته فاطمة، التى أحبها كل الحب وكان له منها الأبناء الذى كانوا (آل بيت الرسول فكانوا أفضل الأبناء.) وأما الحسن ابنهما البكر فهو الذى قال عنه الرسول: ان ابنى هذا سيد.. وعسى الله أن يصلح به بين طائفتين من المسلمين [٤] وهو الذى أشار إليه أبوسفيان حين قدم إلى المدينة متشفعا عند النبى بعلى وفاطمة ليستأنف العهد الذى فسخه صراع خزاعه وبى بكر قبل فتح مكة. فقد طلب أبوسفيان فاطمة من أن تأمر ابنها أن يجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر. وقد حدث هذا فى زمن لاحق عندما كره أن يسوق الناس إلى الموت فى أول عهده وأن تكون هناك معركة بين المسلمين وهو أمر ربما جعل البعض يختلف معه فيها رأى وذهب إليه من قرار وان كان تقدير الحسن للأمور كان له مبرراته.

فلم يكن الحسن ليجبن ولكن كانت له حساباته العقلية حتى فى زمن ولاية ابيه على بن أبى طالب حين أراد أن يرفض أباه البيعة حتى يدعم نفسه بتأييد المسلمين جميعا ووقتها فقط يقبل على الولاية.

ولهذا أرادها الحسن سلاما وأرادها معاوية ملكا فحصل كل منهما على ما أراد، وإن كان الحسن قد تنازل لمعاوية فأنه لم يترك الأمر هوانا فقد اشترط أن تعود الخلافة بعد معاوية للمسلمين ليقرروا من يريدون من بعده. وألا يهان أى من أصحابه وأصحاب أبيه ومن رأى لهما حق فى خلافة المسلمين وأن يحصل على عطاء كبير لا ينفقه على نفسه وأهله بل لينفقه على من يرى ويعلم من فقراء المسلمين وليكون لأخيه الحسين نفس الحظ ليتولى أنفاقه على أيتام الذين قتلوا مع أبيه فى صفين.

فكما قال: لقد كانت جماجم العرب بيدى فى العراق، تسالم من سالمت وتحارب من حاربت، ثم تركتها ابتغاء وجه الله.

وقال أمام الناس وهو يخطب:

أيها الناس... إن الله هداكم بأولنا وحقن دماءكم بأخرنا إلا أن أكيس الكيس التقى وإن أعجز العجز الفجور.. وأن هذا الأمر الذى اختلفت فيه ومعاوية إما أن يكون أحق به منى فقد تركته له. وإما أن أكون أحق به منه فقد تركته لله عز وجل ولخير أمة محمد صلى الله عليه وسلم وحقن دمائها وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين. (٦)

ولم تكن هذه كلمات وهن بل إحتساب لرجل لا يقل حكمة ولافروسية عن آل بيته، إلا إن الإحتساب الآخر الذى كان لابد وأن يواجهه الحسن فهو احتسابه لحياته نفسها فى سبيل عدم الفرقة بين المسلمين، فلم يمنع معاوية وأعوانه تركه عرض الدنيا أن يدسوا له السم عن طريق زوجته جعدة بنت الأشعث بن قيس والتى كان والدها هو الآخر لغزا فى حياة على بن أبى طالب فهو أحد أصحابه المزعومين الذى اتضحت نواياه السيئة فيما بعد، ولم تكن ابنته بأفضل حال من أبيها. فقد باعت حياة زوجها التى ائتمنت

عليها أمام الله مقابل المال واغراء بوعد بالزواج من يزيد بن معاوية، وهو وعد لم يتحقق أبدا.

ومات الحسن ولم يدفن إلى جوار جده كما أراد فقد عارضه بنو أمية فى البقيع ولتبدأ صفحة جديدة فى الإحتساب بطلها الحسين هذه المرة.

***

أما لماذا غاب الحسين عن كل هذه الأحداث ولم يكن هناك بطل إلا الحسن فلأنه كان يحترم أخاه ولم يكن ليريد أن يبدو هناك تناقض بين ما أراده الحسن من لين وتسامح فى المعاملة وبين ماأراده وحسبه كقضية حق.

فالحسن لم يكن ضعيفا ولا متراجعا وتكفيه حجته وما يملك من الحديث، فكان لا يترك موضعا لأى من بنى أمية دون أن يجازى الخروج فى الحديث بحجته القوية.

فيحكى أنه كان يطوف ولقى عمرو بن العاص فقال له: ياحسن زعمت أن الدين لا يقوم إلا بك وبأبيك، فقد رأيت الله أقامه بمعاوية فجعله راسيا بعد ميله وبينا بعد خفاقه.أفيرضى الله بقتل عثمان أو من الحق أن تطوف بالبيت كما يدور الجمل بالطحن عليك ثياب كغرقئ البيض وأنت قاتل عثمان والله أنه لالَم للشعث وأسهل للوعث أن يوردك معاوية حيا فى أبيك.

فقال الحسن رضى الله عنه: إن لأهل النار لعلامات يعرفون بها إلحادا لأولياء الله وموالاة لأعداء الله، والله انك لتعلم أن عليا لم يرتب فى الدين ولم يشك فى الله ساعة ولا طرفة عين. (٧)

وقال لمعاوية وهو يدافع عن أبيه: اسمع يامعاوية واسمعوا، فلأقولن فيك

وفيهم ما هو دون ما فيكم .أنشدكم الله أيها الرهط أتعلمون أن الذى شتمتموه منذ اليوم صلى القبلتين كليهما وأنت يامعاوية بهما كافر تراها ضلالة وتعبد اللات والعزى غواية! وأنشدكم الله هل تعلمون أنه بايع البيعتين كلهما بيعة الفتح وبيعة الرضوان وأنت يامعاوية باحداهما كافر وبالأخرى ناكث؟ وأنشدكم الله هل تعلمون أنه أول الناس إيمانا وإنك يامعاوية وأباك من المؤلفة قلوبهم تسرون الكفر وتظهرون الإسلام وتستمالون بالأموال.

أنشدكم الله ألستم تعلمون أنه صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله يوم بدر، وأن راية المشركين كانت مع معاوية ومع أبيه؟ ثم لقيكم يوم أحد ويوم الأحزاب ومعه راية رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله . ومعك ومع أبيك راية الشرك، وفى كل ذلك يفتح الله له ويفلح حجته وينصر دعوته ويصدق حديثه، ورسول الله صلى الله عليه وعلى آله فى تلك المواطن كلها عنه راض وعليك وعلى أبيك ساخط.(٨)

ولهذا لم يكن الحسن ممن يتراجعون أو يجعلون خشية الناس كخشية الله عز وجل ولا ممن يؤثرون السلامة فينسحبون من الساحة ويكتمون إيمانهم داخل قلوبهم فقد شعر أن الاقتتال شئ مفرط السوء وأنه وبال على أمة المسلمين فكيف يرضى باقتتال الأخوة وهو الذى أصلح الله به ما بين الناس.

ولهذا جاء الحسين بقضية تختلف عن قضية أخيه. فبعد أن مات الحسن لاح شبح النهاية لمعاوية ورأى كما رأى من قبل أن يثبت الملك لولده، فهذه عشر سنوات قد مضت بعد أن أصبح الأمر فى يده وبقى أن يؤمنه لابنه.

وقد أراد ما أراد إلا أن المدينة رفض رجالها ومعهم عبدالرحمن بن أبى بكر وعبد الله بن الزبير وعبدالله بن عمر والحسين بن على.

فمن يريد أن تكون البيعة لفتى مثل يزيد بعد أبيه وكأنها ملكية، ومن يريد أن تكون البيعة لفتى قد اختار بطانته ممن هم أدنى فى كل ضروب الحياة.

ولهذا قال له أبوه معاوية: إنى لا أخاف عليك سوى أربعة رجال: الحسين بن على وعبدالله بن عمر وعبدالرحمن بن أبى بكر وعبد الله بن الزبير.

أما الحسين بن على فإن أهل العراق لن يتركوه حتى يخرج إليهم، فإن فعل فظفرت به فاصفح عنه. أما عبد الله بن عمر فرجل قد وقنته العبادة ولا يريد الخلافة الا أن تأتيه عفوا، أما عبد الرحمن بن أبى بكر فليس له عند الناس ما يجعله يطمح إلى طلبها أو يحاول التماسها إلا أن تأتيه عفوا.

وأما الذى سيجثم لك جثوم الأسد ويراوغك روغان الثعلب حتى إذا أمكنته فرصة وثب عليك فذلك هو عبدالله بن الزبير فإن فعل وظفرت به فقطعه إربا إربا. إلا أن يلتمس منك نصحا..... فإن فعل فاقبل منه واحقن دماء قومك بجهدك وكف عاديتهم بنوالك وتغمدهم بحلمك. (٩)

ويبدو أن مثل هذه النصائح لم ينفذ منها لا القليل ولا الكثير إلى عقل الابن يزيد، فما أن مات معاوية حتى طلب من الوليد بن عتبة عامله على المدينة أن يأخذ هؤلاء بالشدة حتى يبايعوه على رءوس الأشهاد من أهل المدينة وإذا به يرسل فى طلب الحسين وابن الزبير حيث يحاول الأخير أن يسافر إلى مكة.

وأما الحسين رضى الله عنه فذهب إليه ومعه مجموعة من أهل بيته وأمرهم أن ينتظروه عند دار الإمارة فإذا سمعوا حوارا غاضبا أقتحموها، وحدث ماحدث من قول بين الوليد والحسين ورحل الحسين بعدها فى الصباح

إلى مكة واصطحب أهل بيته يتلمس ذكريات عاشها وأحاديث سمعها عندما كان فى بيت جده صلى الله عليه وسلم وجدته خديجة فهى وان كانت ذكريات شفيفه رقيقة إلا أنها فيما يبدو كانت استراحة المحارب التى لابد وأن يغادرها إلى حرب.

فبعدها وصلته كتب أهل الكوفة تدعوه إلى القدوم للمبايعة وهو الأمر الذى أمضى الوقت فى التفكير فيه والذى هداه بعد زمن إلى أن يرسل ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبى طالب ليتعرف على حقيقة الأمر عن كثب فمسلم بحكم قرابته وحبه واعتزازه به لابد أن يكون خير رسول كما أنه يثق فى تقديره للأمور ولما سيرى وسيسمع من بعدها.

وقبل أن يصل مسلم إلى الكوفة كان يزيد قد أعد العدة لذلك بعزل النعمان بن البشير حاكمها المعتدل وتولية عبدالله بن زياد والذى كان واليا على البصرة والذى يعرفه الناس باسم ابن مرجانة والتى كانت جارية مجوسية ورث عنها عبد الله الكثير من صفاتها ووضعها فى الحياة وماترتب على ذلك من ندبات نفسية ورثها الابن عن هذه الأم .

ولهذا لم يكن من المتصور بعد هذا أن يكون مسلم بن عقيل ابن عم الحسين فى أمان حتى فى دار هانئ بن عروة والذى كان من صفوة أهل الكوفة وفى هذه الدار قابل مسلم شريك بن الأعور والذى مرض فأراد ابن زياد زيارته فوجدها هانىء فرصة لكى يقتل مسلم ابن زياد بدلا من أن يصبح له صيدا ثمينا.. إلا أنه لا يفتك مؤمن فهذا ماقاله مسلم عندما سئل لماذا لم يأخذ مبادرة الدفاع عن النفس بالهجوم.

وبهذا الفعل الشريف الذى يحمل الكثير من ملامح الفروسية الإسلامية قد وضح الطريق لكل من يحب آل البيت والذى يرى فى هؤلاء أبطالا. وقد

استطاع ان يتجمع لدى مسلم ثمانية عشرألفا إلا أن هذا لم يكن ليجعله بمأمن فكثيرا ما تكون اليد البيضاء والخطوط المستقيمة هى نقطة الضعف التى يدفع الإنسان ثمنها وكثيرا ما يكون الثمن فادحا لدرجة لا يتصورها أحد حتى من يقتل.

وقد استعان ابن زياد لاجل هذا بجاسوس وبضعف نفوس الناس الذين دلوه على مكان مسلم والذى لم يجد أمامه إلا وصية يوصيها لعمر بن سعد بن أبى وقاص الذى كان على النقيض من والده فلم يكن يحلم إلا بالملك فلم يرسل ليرد دين مسلم ولا للحسين ليرده عن فكرة المجيء ويخبره بأن أهل الكوفة لا عهد لهم، وبينما كان هذا هو عهد الكوفة فإن الحسين كان مشغولا بقضية الرحيل إليهم فقد أعد العدة للذهاب إلى الكوفة فلم تثنه نصائح عبد الله بن عباس بألا يذهب إلى هذه البلاد حتى يعزلوا أميرهم ولا قول عبدالله بن عمر الذى أدركه بعد ثلاثة أيام من مكة بضرورة التريث ولا أبو سعيد الخدرى الصحابى الجليل الذى ذكره بعدم ثقة أبيه فى أهل الكوفة.

إلا أن الحسين لم يستمع إلى كل هذا وكأنه على موعد مع كربلاء.. ففى رأى كاتب كبير مثل خالد محمد خالد كانت القضية هى قضية الإسلام ومصيره والمسلمين ومصيرهم، فإذا صمت المسلمون جميعهم تجاه هذا الباطل الذى أنكره البعض بلسانه وينكره الجميع بقلوبهم فمعنى ذلك أن الإسلام قد كف عن إنجاب الرجال!!.. ومعناه أن المسلمين قد فقدوا أهلية الإنتماء لهذا الدين العظيم.. ومعناه أيضا أن مصير الإسلام والمسلمين معا قد أمسى معلقا بالقوة الباطشة فمن غلب ركب... ولم يعد للقرآن ولا للحقيقة سلطان.. هذه هى القضية فى روع الحسين. وبهذا المنطق أصر على الخروج إلى جانب معنى آخر نبيل أفصح عنه فى حواره مع ابن عباس حين كان يلح

عليه أن يبقى فى مكة فقال له: «إنى أخاف أن تستباح بسببى» وأنه برفضه مبايعة يزيد وبتصميمه على مقاومته يرى المجابهة أمرا محتوما.. ولم يرد لهذه المجابهة أن تقع فى البلد الحرام فهو على بينة من سفالة خصومه، وهو يعلم أنهم لن يتورعوا عن هدم المسجد ذاته والكعبة ذاتها إذا اضطرهم القتال لذلك.

ثم ان أهل الكوفة قد دعوه ووثقت دعوتهم بكتاب ابن عمه «مسلم بن عقيل» فقد صار لزاما عليه وفق اقتناعه بعدالة قضيته أن يسارع إلى تلك الجبهة التى أعدت نفسها لمناصرته والمقاومة معه.(١٠)

وأما التفسير الثانى فهو ما أورده عباس محمود العقاد حين قسم البشر إلى قسمين أصحاب الأريحية وأصحاب المنفعة. وأن أصحاب المنفعة أو المصالح هم الذين يتواجدون فى كل عصر ويطلبون ما ليس لهم من حقوق ويضعون حول أنفسهم سياجا قوامه التعصب والجهل والاستعلاء لكى يصلوا إلى أهدافهم، أما أصحاب الأريحية فهم من يعيشون من أجل فكرة ويدفعون حياتهم ثمنا رخيصا من أجل مبدأ.

وأما عبدالحميد جودة السحار ففى كتابه «أهل بيت النبى» لم يضع تفسيرا أكثر مما وضع حديثا موثقا للحسين رضى الله عنه حين قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من رأى سلطانا جائرا مستحلا لحرم الله ناكثا لعهد الله مخالفا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل فى عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولاقول، كان حقا على الله أن يدخله مدخله. إلا أن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود وأستأثروا بالفىء وأحلوا حرام الله وحرموا حلاله وأنا أحق من غير، وقد اتتنى كتبكم وقدمت على رسلكم ببيعتكم

أنكم لاتسلمونى ولاتخذلونى، فإن تممتم علىّ بيعتكم تصيبوا رشدكم، فأنا الحسين بن على وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسى مع أنفسكم وأهلى مع أهليكم فلكم فى أسوة وان لم تفعلوا ونقضتم عهدكم وخلعتم بيعتى من أعناقكم فلعمرى ماهى لكم بنكر لقد فعلتموها بأبى وأخى وابن عمى مسلم والمغرور من أغتر بكم. (١١)

وحتى هذه الكلمات لم يكن الحسين ليعلنها أمام أهل الكوفة أجمعين وإنما قالها أمام جنود الحر بن يزيد التميمى الذى أمره ابن زياد أن يذهب فى قوة من ألف فارس ليقودوا الحسين إلى الوالى ابن زياد فى الكوفة.

فما كادوا يصلون إلى مكان الحسين حتى كاد العطش يفتك بهم فأراد الحسين أن يستقبلهم بالماء الذى منعه عنه ابن زياد فيما بعد ولم يكن هذا الفعل بالغريب.. فهذا هو الحسين وهذا هو نبله وأخلاقه. وهذا هو ابن زياد يزيد الذين لايتورعون عن استخدام اكثر الأسلحة خسة.

إلا أن التفسير الأقرب لخروج الحسين هو أنه كان يعلم معنى الإحتساب فقد احتسب كلماته وموقفه ودفاعه عن آل بيته عند الله تعالى فقد أراد الحسن رضى الله عنه أن يؤثر سلامة المسلمين وابتعد عن منازلة معاوية فى ملكه الذى ادعاه غصبا ولكن معاوية لم تهدأ نفسه إلا بقتل الحسن فقد كان معنى كلمة الإحتساب عند الحسن هو التنازل حقنا لدماء المسلمين. أما معنى كلمة الإحتساب عند الحسين فقد جاء فى الخروج إلى كربلاء.

أما السبب الآخر فهو شخص يزيد بن معاوية فقد كان والده يملك حنكة ودهاء خاصا يستقطب به الناس ويراوغ به الناس أيضا ولكنه ترك يزيد لمن يتولى تقويمه، فقد كان حديث العرش المزعوم هو كل ما يشغل بال معاوية فلم يستطع أن يلهم يزيد الذكاء الذى قد يفسح له بعض الطريق ويقيه من

عثرات كثيرة. ولم يستطع أن يقدم له القدوة فنشأ يجمع بين الحسن والقبيح وأن اجتمع عليه القبيح والبطانة الفاسدة التى وجدت هوى فى نفسه.

فكيف كان يمكن للحسين رضى الله عنه أن يترك هذا الفاسد على رأس أمة المسلمين والإسلام مازال غضا يافعا وبعض الصحابة ومن شهد المعارك الكبرى لا يزال ينتظر، فيزيد يعتبر الدنيا ملكه، وما أشد ما كره الحسين ولطالما حلم بالإطاحة بهذا الرأس الشريف الذى يملكه وهذا القلب الذى يحمله.

ولم يكن ليزيد أن يحقق ما يريد إلا بهذا التواطؤ الرخيص بين ابن زياد ومستشاره شمر بن الجوشن وبين ما يريده عمر بن سعد بن أبى وقاص من عرض الدنيا فهذه الشرذمة ما تكاد تجتمع على شئ فى هذه الدنيا مثل إجتماعها على الشر. ولهذا لم يكن مستغربا أن يصل الأمر بالمؤامرة إلى طلب ابن زياد بثبات الفجار أن يقتل الحسين وأن يطأ الخيل صدره وظهره.

وهكذا اتضح الأمر لكل من حضر المعركة سواء كان الحسين وآله وصحبه أم جيش المعتدين فالمؤامرة قد أصبحت سافرة. ولهذا طلب الحسين إرجاء القتال مع اليوم التاسع من محرم ليصبح الوقت سانحا أمام أصحابه لكى ينسحبوا تحت جناح الليل، فهذه نفحة من فروسيته التى قد ترضى البعض ممن ظنوا أنهم قد عقدوا معاهدة أبدية مع الحياة ولكنها لم تكن لترضى آل بيته ولا بنو عقيل ولا بنو جعفر حيث بقى معه اثنان وسبعون ليواجهوا أربعة آلاف رجل أرسلهم إليه هذا التحالف الآثم الذى يقف على قمته يزيد بن معاوية وفى أسفله شمر بن الجوشن.

ورغم أن الأمر قد يبدو محسوما للفئة الباغية إلا أن الخير لا يعدم فرسانه فقد انسحب الحر بن يزيد التميمى صاحب الطليعة التى قادت

الحسين إلى كربلاء من جيش ابن زياد ليلحق بجيش الحسين.

وتبدأ المعركة التى كانت مفاجأتها هى التقدم الذى أبداه السبعون فارسا. وهى ان تكن مفاجأة بالنسبة للبعض فهى حقيقة لأن الحسين ورجاله كانوا يقاتلون من أجل فكرة وأما من جاء مناهضا لهم على الجانب الأخر فلم يكن الا شخصا من اثنين أما طامع فى هذه الدنيا لا يتوقف عند حد إبتذال نفسه وروحه وأما مجبر أجبره سيف ابن زياد لكى يقف هذا الموقف المخزى وهو أن يكون بين جيش الأعداء وهو ليس منهم.

إلا أن المعركة قد اججتها السهام والنيران التى اشتعلت فى معظم الخيام التى كانت تأوى أهل البيت .ويستمر القتال منذ فجر ذلك اليوم حتى يكاد النهار أن ينصرم والجميع من آل البيت يقاتل فى ثبات وكأنه واثق من الفوز. فلا يهم من يسقط وسط المعركة صريعا فحسبه مكانه من الجنة حتى جاء وقت لم يعد أمام الحسين ولاحوله فرسانه وان بقيت قوته وإخلاصه لربه حتى وسط سقوط ابنائه أمام عينيه، وحتى وهم يموتون وهم ظمئى، إلا أن الدائرة تضيق ويضرب الحسين بالسيف على رأسه ويتقدم من الحسين من يخشى شمر ولايخشى تقوى الله فيضرب يده ويضربونه على العاتق ويحاول أن يتوكأ على سيفه، ولكنهم لم يتركوه ليقف على قدميه مرة أخرى ويسرع أحدهم بجز الرأس الشريف لينتهى كل الحديث عن المعركة فى لحظات، أو هكذا توهموا فى لحظتهم التى عاشوها فقط... وهكذا وفى هذه اللحظة التى عاشوها قتلوا سيدنا الحسين بن على.. فمن كان يتوقع هذا ؟

الباب الثانى

الأبواب المفتوحة

تركنا مصر قليلا وأخذتنا الأحداث إلى أكثر مما كنا نتصور، فصحيح أن هذا تاريخ معروف لكل الناس إلا أن المرء يحار عندما يبحث فى الدوافع وعندما يحاول أن يفهم أبعاد الصدمة التى تصيب البعض من أصحاب الطموح الجارف الذى لايقيده قيد أو يرتكز على حائط أخلاقى ويحار أيضا عندما يحاول أن يفهم معنى الاحتساب الذى تتقنه النفس المؤمنة وتتخذه مبدأ فى الحياة ليساند هذا الإيمان ولايتناقض معه للحظة واحدة.

ولكن من يستطيع أن يفهم الصدمة التى يشعر بها أصحاب النفوس الضعيفة إلا أصحابها ومن يستطيع أن يفهم الاحتساب الذى يفهمه أصحاب النفوس القوية إلا أصحابها

المهم أننا تركنا عمرو بن العاص على أبواب بر مصر من جديد، فقد عاد كما أراد وامتطى ركاب خطأ التحكيم بعد معركة صفين ليعود إليها، ولكنها الأيام تمضى فلم يكد عمرو يصل إلى مصر حتى دارت به الأيام وجاءت خاتمتها عندما أهلّ اليوم الأول من شوال عام ٤٣ هـ حيث اجتمع ولده حوله فبكى وقال: «لكنى كنت على أطباق ثلاث، وقد رأيتنى وما أحد من الناس أبغض إلىّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولاأحب من أن أتمكن منه فأقتله فلو مت على هذه الطبقة لكنت من أهل النار، فلما جعل الله الإسلام فى قلبى أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبايعه فقلت ابسط يدك لأبايعك فبسط يده ثم أنى قبضت يدى فقال «مالك ياعمرو؟» فقلت أردت أن اشترط فقال «تشترط ماذا؟» فقلت أن تغفر لى ماتقدم فقال «أما علمت ياعمرو أن الإسلام يهدم ماقبله وأن الهجرة تهدم ماكان قبلها وأن الحج يهدم ما كان قبله؟» فبايعته فما كان أحد أجل فى عينى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو سئلت أن أنعته ماطقت لأنى لم أكن أطيق أن أملأ عينى منه إجلالا له، فلو مت على تلك الطبقة لرجوت أن

أكون من أهل الجنة، ثم ولينا أشياء بعد فلست أدرى ما حالى فيها، [١].

ويموت عمرو بعد كلمته هذه ويترك مصر والدنيا كلها الى خالقه بعد أن بلغ التسعين وبعد أن امتدت أقامته بمصر عامين وثلاثة أشهر فقط فى عهد معاوية بن أبى سفيان بعد التحكيم وليأتى بعده عتبة بن أبى سفيان أخو معاوية ليحكم المصريين وليعمل فيهم السيف كما أراد ورأى، فقد كان السيف والسوط هما أبلغ أسلوب فى رأيه للتعامل مع المحكومين بوجه عام والمصريين على وجه التحديد ولهذا لم يكن مستغربا أن نجد له فى كتب التاريخ هذه الخطبة العصماء وإن كان عتبة نفسه شخصية لم تذكر فى كثير من الأمر ـ فقد كان له دوره عندما أشار على أخيه معاوية أن يقبل شرط عمرو بن العاص وهو الحصول على مصر كطعمة ـ ولكنه مع هذا لم يكن بالشخصية ذات الوعى الحربى أو السياسى ولاينسب له أى من الأدوار الكبرى التى نسبت لأخيه، وأما خطبته فيقول فيها:

«ياحامل إلامَ أنف ركب بين أعين..!! إنى إنما قلمت أظافرى عنكم ليلين محسنا لكم: فأما إذا أبيتم إلا الطعان على السلطان فوالله لاقطعن بطون السياط على ظهوركم.. فإن حسمت أدواءكم والا فالسيف من ورائكم.

ياأهل مصر.. قد كنتم تغدرون ببعض المنع منكم لبعض الجور عليكم..

وقد وليكم من إذا قال فعل. فإن أبيتم درأكم بيده فإن أبيتم درأكم بسيفه.. أن البيعة شائعة.. لنا عليكم السمع ولكم علينا العدل [٢].

وبهذه الكلمات وبهذا الموقف الجامح الذى لا يحمل أى ملامح منطقية أصبح المصريون يقفون على الجانب الآخر من المسألة، فلا يمكن حتى وإن تغاضينا عما حدث للحسين رضى الله عنه أن يسوس حاكم ولايته بكل هذه

الكراهيـة فـالمنطق يقـول إن لكل فـعل رد فـعل وأن الحب لايقـابله إلا حب والكراهية لاتقابلها إلا كراهية حتى لو أخرجنا من حساباتنا طبيعة الشعوب والأمم.. والمدى الذى يمكن أن يبلغه شعب ليصل إلى حد الثورة.

ولهذا كان خروج السيـدة زينب أخت الحسن والحسين وابنة فاطمة الزهراء وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهم وأرضاهم جميعا ليس بغريب، فبعد مقتل الحسين ومحاولة اجراء محاكمة وهمية لآل البيت خشى الوالى فى المدينة أن تقوم ثورة فأشار على يزيد بن معاوية أن يخرجها وأهلها من مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وأبت السيدة. وكادت تتكرر حكاية كربلاء لولا أن طلبت منها ابنة عمها زينب بنت عقيل أن ترضى وأن تختار بلدا آمنا كانت مصر فيه الأوفر حظاً، فالمدينة أهلها ثائرون والكعبة نصب حولها المنجانيق والشام هى عز الأمويين والعراق يسكنها عبدالله بن زياد.

فكيف يكون هناك مقام إلا فى مصر التى انتظر أهلها السيدة زينب عند مدينة الفرما وكأن الزمن يعود مرة أخرى للخلف ويذكرنا بأيام الرسول وانتظار أهل المدينة له، فما أجمل المدينة وأرقها وما أكرم المصريين وأعذبهم ولتبدأ أحداث قصة «آل البيت فى مصر وما كان منهم وما كان من أهل مصر بعد ذلك الزمن.. ولنبدأ بالامام الحسين.

الفصل السابع

الحسين سيداً وشهيداً وحبيباً

«تمهلوا.. انتظروا فإن فى الدنيا حكايات قد يصيب صفحاتها الأصفرار إذا ماتركت، ولكن أول حكايات آل البيت فى مصر أتذكرها دائما فى شهر رمضان عندما نجلس إلى الموائد ويريح صوت الشيخ محمد رفعت أرواحنا وهو يرفع الآذان فى لحظة ننتظرها لتبتل العروق ويثبت الأجر وهى لحظة الغروب التى تبدو الدنيا عندها وكأنها سماء مفتوحة لكل دعاء ولكل قلب عرف ربه.

وأما صاحب الحكاية والقصة فهو سيدنا وإمامنا الحسين رضى الله عنه سبط رسول الله صلى الله عليه سلم وسيد شباب أهل الجنة الذى ماتكاد تعبر بنا لحظات الغروب إلى الليل حتى تضىء القاهرة أنوار مسجده ويأتى محبوه إلى مشهده الطاهر فيتنسمون بركات حفيد الرسول الذى نما حبه فى أحشاء كل مسلم وأصبح عشقه مكتوبا بل محفورا على عظامهم وفى دمائهم وكيف لايكون أوليس هو القائل بأن الحلم زينة والوفاء مروءة والصلة نعمة والاستكثار صلف والعجلة سفه والسفه ضعف والغلو ورطة ومجالسة أهل الدناءة شر ومجالسة أهل الفسوق ريبة (١).

* الحسين سيداً

آمنا بالله ونصلى ونسلم على رسوله خاتم النبيين ولنبدأ الحكى ولكنى قبل أن أعود إلى قصة الحسين رضى الله عنه أتوقف عند وجود مشهده فى مصر كبداية، فرغم أن قصة آل البيت فى مصر تبدأ بالسيدة زينب رضى الله عنها إلا أن البداية فى رأيى لابد وأن تروى من كربلاء، وربما أبعد من هذا وبالتحديد وبالتحديد من هذا فى السنة الرابعة بعد الهجرة والسيدة فاطمة تنتظر وزوجها على بن أبى طالب رضى الله عنهما وأرضاهما أن تتخفف من حملها الذى أثقلها بمولد طفل جاء إلى الحياة بعد شهور معدودة لم تصل إلى تسعة أشهر، فهناك

من يؤكد أن للرسول حفيدا ولد بعد ستة أشهر فقط وأن جده أسماه حسينا ولم يرض أن يسميه حربا كما أراد والده تسميته فى البداية.

ويولد الحسين فى أفضل صورة فقد كان وأخوه الحسن فتنة كما قال عنهما جدهما ، فقد صدق قول الله فيهما بأن من أولادكم فتنة وهما يرتديان ملابس حمراء ويحاولان أن يمشيا فيتعثران وهما طفلان.

ولأن الطفولة أيام قليلة وتمر فقد كانت طفولته طيبة وإن كان الجد قد رحل مبكرا ومن بعده الأم، ومن بعدهما جاءت أيام عصيبة مع والده على كرم الله وجهه، فقد عرف المعارك مبكرا مثل الجمل وصفين وضد الخوارج وقد ثبت قلبه على كل هذا حتى بعد أن مات والده وتولى معاوية بن أبى سفيان وعرف عن الحياة الكثير من منغصاتها.

أعترف أن حياته لم تكن أبدا سهلة ميسرة إلا أن الاختبار الأكبر هو ماحدث بموت معاوية وتولى ولده يزيد وهو الاختبار الذى عجل بنهاية القصة، ولكنى مع هذا لاأريد أن أكون كمن ينسى الكثير وهو يحكى، فهذه هى روح الحسين ومنهجه قبل أن ندخل معه فى الكثير من التفاصيل، فهو كما يصفه عميد الأدب العربى طه حسين فى كتابه الفتنة الكبرى صاحب فطنة وبعد نظر فى الأمور إلى جانب جديته الشديدة (٢) وهو الذى روى عنه ابن عساكر إنه كان دائم الكرم يقضى للناس ديونهم ومغارمهم وإن كان لم يكن يوما يحسب من المبذرين، وهو الذى وصفه ابن أبى حديد بأنه شجاع مقدام منذ صباه يحطم الفرسان تحطيما، وهو أبو عبدالله وأبو سكينة الوالد الذى لاينافسه فى أبوته سوى أم رؤم.

وهو الزاهد الذى مايكاد يصل إلى العام السابع والخمسين من العمر حتى تفاجئه الحياة باختبار صعب.

* الحسين شهيدا

الحمد لله رب العالمين.. فاللهم أحينا مادامت الحياة خيرا لنا وارزقنا بخير الزاد وهو التقوى، فقد وصلنا الآن إلى العام الستين من الهجرة عندما توفى معاوية الذى كان يعتبر وقتها أكبر من طالب بالزعامة فى عصره، وأكثر من استفاد من الأيام الأخيرة لعلى بن أبى طالب وان كان لايخفى على أحد أنه كان صانع بعض هذه الظروف، فقد أرادها دولة أموية فجعل البيعة ليزيد وهو مالم يقبله الحسين، وكان هناك من لايقبل إلا الحسين إماما وهو ماجعل الحسين يتحمس ويرسل ابن عمه مسلم بن عقيل إلى العراق ليحدث مايحدث ويلقى مصيرا صعبا أحزن قلب الحسين.. وهو القلب الذى ألح عليه أن يذهب فى نفس الطريق الذى قطعه من قبل مسلم، فلاخير فى العيش بعد هؤلاء.

وفى كربلاء انتهى سير الحسين نتاج تحلق الجيوش عليه فهم جند يزيد الذين يريدون هذه الدنيا ويتشيعون لها، فمن بينهم شمر بن ذى الجوشن الذى يأمر جنده ليحملوا على الحسين ويقطعوا يده اليسرى فتكون أول مايسبقه إلى الجنة ثم يهموا بكتفه حتى لايستطيع الوقوف على قدميه مرة أخرى، ولكنه مع هذا يستند على يده اليمنى محاولا الوقوف إلا أن اليد تخذله كثيرا وتسانده قليلا، فيقوم ويكبو وهم لايرحمون اليد ولاصاحبها فيطعنون ظهره بالرماح والسيوف حتى يدخل عليه الحزن والألم من كل باب فى نفسه وجسده ويرحل تاركا هذه الحياة، وفى الجسد أكثر من ثلاثين طعنة وضربة.

فلو لم يمت الحسين بكل هذا لمات عندما رأى ولده عبدالله يطلب الماء فقد كان يشعر بالعطش فطلب والده أن يتقى جند يزيد الله فى طفله فكان ردهم

سهما ينفذ إلى أحشاء ابنه وهو بين ذراعيه، وسهما آخر يصيب فم الحسين فينزعه وتنزف دماؤه وهو يدعو الله فيقول: إن تكن حبست عنا النصر من السماء، فاجعل ذلك لما هو خير منه وانتقم لنا من القوم الظالمين (٣).

* الحسين حبيبا

سبحان الله.. فمن ذا الذى يجيب السائل والمضطر إلا الرحمن الرحيم، مات الحسين وقد سأله ابنه الصغير «على» قبلها: ألسنا على الحق، فقال له والده: بلى والذى يرجع إليه العباد، فقال على: إذن لا نبالى (٤).

فلم يبال الحسين بالموت ولابالنخاسين الذين قطعوا رأسه بعد موته وأخذوا قميصه وسيفه وعمامته وحتى نعليه، الا ان هذا الرأس الشريف لايلبث ان يصبح هو الآخر قصة لها تفاصيلها فهناك من يقول إن الرأس والجسد قد دفنا معا فى كربلاء، وهناك من يقول بل بالمدينة أو بمرو وآخر يؤكد أنها بباب الفراديس بدمشق أو ربما بمقابر المسلمين بدمشق وقد نبشت لينتقل الرأس بعدها إلى عسقلان ومنها إلى القاهرة.

ربما تتعدد الأماكن ولكن هناك رأيا للعالمة سعاد ماهر تقول فيه إن وجود الرأس بالمدينة ينقصه الدليل المادى كما أن وجوده بكربلاء مع الجسد مستبعد عقلا.

وربما الرأى الأقرب الى الصحة هو وجوده بدمشق.. ومن المرجح أنه ظل بها حتى نبش ونقل إلى عسقلان ومنها إلى مصر فى عام ٥٤٨ هجرية.

وفى مصر.. سبحان الله.. اللهم قنا عذابك يوم تبعث عبادك تتتابع السنوات ومايضيفه البشر فى حب الإمام الحسين رضى الله عنه، فهناك وفوق المحراب يكتب بماء الذهب.

إلا أن تقوى الله خير البضائع

ومن لازم التقوى فليس بضائع

فى مكان آخر من القبة فى الداخل:

ركن هذا المقام جنة عدن

ومن أتاه يفوز بالمأمول

ولكن هل تفلح كل الكلمات وكل المشاعر فى أن تنافس الحسين فى قوته وفى جرأته وفى اعتداده بالحق، أوليس هو القائل:

أغنى عن المخلوق بالخالق

تغنى عن الكاذب والصادق

واسترزق الرحمن من فضله

فليس غير الله من رازق

من ظن أن الناس يغنونه

فليس بالرحمن بالواثق(٥)

ولايمكن أن يخفى على أحد أن منطقة الجمالية تشهد على حالة الحب العميق لحفيد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهناك قصة يحفظها المصريون ويتناقلونها جيلا عن جيل وهى قصة رأس الحسين التى جاءت إلى مصر عام ٥٤٨ هجرية، فربما لايذكرون أو يحددون العام ولايتوقفون كثيرا عند حملها إلى قصر الزمرد وبناء الوزير الفاطمى طلائع بن رزيك جامعا ليدفن الرأس به، وهو ما لم يتحقق أبدا ولم تنقل الرأس من قصر الزمرد إلا إلى المشهد الحسينى، فلم يفلح الوزير الأرمنى طلائع بن رزيك وزير الخليفة

الفاطمى الفائز بنصر الله فى نيل هذا الشرف بعد أن حمل رأسه الشريف إلى بر المحروسة خوفا من هجمات الفرنج على عسقلان فى وقت اشتدت فيه الحروب الصليبية، فرغبته لم تتحقق حيث لم يصرح له الخليفة بهذا فلا يمكن أن يدفن الرأس الشريف إلا داخل القصور الزاهرة، وهو ماحدث بالفعل حيث أن المشهد الحسينى المواجه للأزهر الشريف ليس إلا قصرا فاطميا زاهرا.

وقد حكى لنا الرحالة ابن جبير عن المشهد الحسينى العظيم الذى علقت فيه قناديل الفضة وازدان بأنواع الرخام والذى يضم رأس الحسين فى تابوت من فضة مدفون تحت الأرض، ويقال إن منارة على باب المشهد قد انشئت فى العصر الأيوبى.

إلا أن هذا المشهد قد احترق فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب عندما سقطت شعلة من احدى خزانات الشمع، ولهذا اعتبر ترميمه وتوسيعه مهمة كبيرة قام بها القاضى عبدالرحيم البيسانى حتى إذا جاء العصر المملوكى أراد الملك الظاهر بيبرس أن يوسع المسجد وهو ماحدث أيضا فى عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون الذى بنى إيوانا وبيوتا للفقهاء من حوله.

وفى العصر العثمانى قام أحد الولاة وهو السيد محمد باشا الشريف بترميمه كما قام الأمير حسن كتخدا بتوسيعه وأقام تابوتا من الأبنوس المطعم بالصدف والعاج وعليه شعار من الحرير.

واستمر الحال حتى إذا جاء زمن الخديو اسماعيل أمر بفرشه بالسجاد الثمين وإنارته بالشموع وترتيب أوقاف له، وقد قام على باشا مبارك بكل هذا التوسع والتطوير وساعدته أيضا بعض العطايا والهبات من اسطنبول وإيران.

فتجمعت الشبابيك الثلاثون للمسجد المطلية بالذهب مع المنبر الخشبى الرائع الجمال والسجاجيد الفارسية الفاخرة، إلى جانب قاعة للآثار النبوية أنشأها الخديو عباس حلمى الثانى فى مكان واحد، ويقال إن هذه القاعة قد وضع بها دولاب للآثار الشريفة فى الجهة القبلية وقد كتب عليها «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها» ويقال وحسب رواية د.سعاد ماهر أن الخزانة تحوى قطعة من قميص الرسول صلى الله عليه وسلم ومكحلة ومرودا وشعرتين من اللحية الشريفة. ويقال بها مصحفان أحدهما بخط سيدنا عثمان بن عفان والآخر بخط سيدنا الإمام على بن أبى طالب، وقد استمر التوسع والامتداد يكتب للمشهد بعد هذا التوسع وعلى مر السنوات، فبعد عام ١٩٥٢ اتسعت المساحة إلى ٣٣٤٠ مترا مربعا وأضيف للمسجد مكتبة ومنبر جديد من الخشب الزان وله حشوات من عاج وزان.

وأما تجديدات عام ١٩٥٩ والتى بدأت وامتدت لمدة أربع سنوات ورصدت لها آلاف الجنيهات لصنع السجاد اليدوى الذى قدمته المحلة الكبرى وترميم الواجهة الرئيسية وإقامة واجهة جديدة وانشاء مئذنة فى الطرف الجنوبى الشرقى تماثل الموجودة فى الطرف الجنوبى الغربى وصناعة منبر جديد للمسجد، كما أهدت طائفة البهرة مقصورة من الفضة مرصعة بالماس فى منتصف الستينات.

ويعتقد أن الباب الأخضر هو أقدم أجزاء الضريح ويرجع تاريخه إلى أواخر العصر الفاطمى فى الزمن الذى حملت فيه رأس الحسين الشريفة إلى بر مصر وتحتوى القبة على أربعة أبواب منها باب يؤدى إلى غرفة الآثار كما جاء بكتاب د. سعاد ماهر «مساجد مصر وأولياؤها الصالحون» كتب بأعلاه «قل لاأسئلكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى».

وهناك أبيات من الشعر للشيخ عبدالله الشبراوى والذى كان يعتبر الشاعر المصرى المرموق فى عصر الاضمحلال العثمانى وهى:

ياكرام الأنام ياآل طه

على من يهيم فيكم علام

بابكم كعبة الهدى وحماكم

منهل فيه للأنام إزدحام

باب فضل لما سما أرخوه

من دنا نحو بابكم لايضام

رضى الله عنكم آل طه

وصلاة منى لكم وسلام (١).

ويقال إن حجرة التابوت وحسب روايتها أيضا تقع فى الطبقة الثالثة من أرض القبة وقد وضع الرأس فيها على كرسى من الأبنوس وهى ملفوفة فى برنس أخضر وحولها نحو نصف أردب من الطيب الذى لايفقد رائحته بتوالى السنين.

وأما التابوت نفسه فقد كتب عليه بالخط الكوفى «الملك لله» «وماتوفيقى إلا بالله»، «ثقتى بالله»، «نصر من الله وفتح قريب»، «العزة لله»، «ومابكم من نعمة فمن الله».

وقد يتساءل البعض لماذا ذكر النصر ولكنى فيما أعتقد أن كلمة النصر قد كتبت لتذكرنا بمعنى الاحتساب وأن النصر ليس فى الدنيا وحدها ولكن فى الآخرة أيضا عندما يصل المؤمن إلى بر النجاة الحقيقى أوليست هذه

كلماته لأبى ذر الغفارى عندما نفاه معاوية: «ياعماه! إن الله قادر أن يغير ماقد ترى، والله كل يوم فى شأن.. وقد منعك القوم دنياهم ومنعتهم دينك، وماأغناك عما منعوك وأحوجهم إلى مامنعتهم، فاسأل الله الصبر والنصر، واستعذ به من الجشع والجزع فإن الصبر من الدين والكرم، وإن الجشع لايقدم رزقا، والجزع لايؤخر أجلا (٧).

فهذا هو الحسين الذى وصفه شاعر كعبدالرحمن الشرقاوى بأنه عاشق لعطر الريحان يحب الدنيا ويعرف مكانه فى الآخرة.

فأنا الشهيد هنا على طول الزمان

أنا الشهيد

فلتنصبوا جسد الشهيد هناك فى وسط العراء

ليكون رمزا داميا

للموت من أجل الحقيقة والعدالة والآباء

قطراته الحمراء تسرح فوق أطباق السحب

كى تصبغ الافق الملبد بالعداء

ببعض ألوان الإخاء

من قلبى الدامى استشرق روعة الفجر الجديد

من حر أكباد العطاش سينبع الزمن السعيد

طوبى لمن يعطى الحياة لقيمة أغلى عليه من الحياة

طوبى لأبناء الحقيقة أدركوا إن الاباء

هو الطريق إلى النجاة

وتذكرونى دائما

فلتذكرونى كلما استشرت طواغيت الظلام

وإذا عدت كسف الجوارح فوق أسراب الحمام

وإذا طغت نوب الحروب على نداءات السلام

وإذا تمطى الوحش فى الحقل الندى

يلوك أحشاء الصغار

وإذا طغت قطع الغمام

على وضاءات النهار

وإذا تأجج فى النجوم بريقها تحت العواصف

وإذا تمزق آمن تحت المخاوف

وإذا مشى الفقهاء مخذولين

يلتمسون عطف الحاكمين

وإذا انزوى العلماء خوفا من صياح الجاهلين

وإذا أوى الضعفاء للأحلام

يقتاتون بالأمل الحزين

وإذا دجا ليل الخطايا

وإذا تبجحت الدنايا

وإذا الفضائل أصبحت خرساء عاجزة

وصوت الشر صداح مبين (٨)

فهذا هو الحسين وهذه هى قصته سيدا وشهيدا وحبيبا ، فكما قال له الشاعر الفرزدق قلوب الناس معك وسيوفهم مع بنى أمية والقضاء ينزل من السماء والله يفعل مايشاء. فصدق الفرزدق.. الله يفعل ما يشاء.

الفصل الثامن

السيدة نفيسة: راحة القلب على أعتابك

رضى الله تعالى عن مصر بوجود السيدة نفيسة بين أهلها.. ففى القاهرة العتيقة وتحديدا فى منطقة درب السباع بين القطائع والعسكر يوجد المشهد النفيسى. وهو مكان ترتاح إليه قلوب المصريين ويجدون فيه ملاذا من كل آلامهم صغيرة كانت أو كبيرة فأهل المحروسة لا ينسون السيدة نفيسة التى لم يحبوا أحدا مثلها والتى لا تغيب عن بالهم صباحا ومساءا.

وكما يقول المقريزى أقام والى مصر عبيد الله بن السرى بن الحكم ضريح السيدة نفيسة فى نفس المكان الذى عاشت فيه واستمتع المصريون بوجودها بينهم.

وإن كان هذا الضريح قد أعيد بناؤه فى عهد الدولة الفاطمية حين كان الفاطميون أكثر من تباروا فى إظهار حبهم لأهل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم ولأبناء على وفاطمةرضى الله عنهما. وقد كان نسب السيدة نفيسة باعتبارها ابنة الإمام الحسن الأنور بن زيد الأبلج بن الامام الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم جميعا كفيلا بأن يتسابقوا ليعيدوا بناء الضريح وليكتب على بابه «نصر من الله وفتح قريب» وأن يرأبوا الصدع الذى حدث فى قبة المشهد النفيسى حيث جرى تجديدها مع المحراب الذى اكتسى بثوب من الرخام.

وفى عهد المماليك أعظم البنائين فى تاريخ مصر الإسلامية نظر السلطان الناصر محمد بن قلاوون إلى المكان نظرة خاصة، فقد رأى أن أمر نظارته والإشراف عليه لهو حق للخلفاء العباسيين الذين جاءوا إلى مصر فرارا من المغول الذين قد قضوا على كل حلم لهم فى البقاء فوق عروشهم والابقاء على كيان الدولة العباسية، ولهذا رأى قلاوون فيما رأى أن التمسك باعطائهم مثل هذا الحق لهو كفيل بأن يكفكف بعضا من دموعهم.

وفى زمن آخر كتب الجبرتى يقول إن الأمير عبدالرحمن كتخدا وهو أحد عشاق مقام السيدة نفيسة تطوع ليضيف إلى المشهد والمسجد وأما الضريح فقد بناه كاملا وكتب كما تقول الدكتورة سعاد ماهر على بابه بالرخام:

عرش الحقائق مهبط الأسرار

قبر النفيسة بنت ذى الأنوار

حسن بن زيد بن الحسن نجل الاما

م على ابن عم المصطفى المختار (١)

ولايزال المسجد والمشهد يشهدان معا توسعات وإضافات وأوقافا حددت فيما قيل بأربعمائة وخمسين فدانا بالإضافة إلى صناديق النذور التى قد تفيد أموالها فى الإبقاء على جمال المكان بكل تفاصيله.

* الطريق طويل

وأما السيدة نفيسة صاحبة القصة فهى العابدة الواصلة الواثقة بالله وبفضله وهى من يحكى عنها الكثير من الكرامات والحكايات فما أكثر ما قيل عن نفيسة العلم التى كانت تحب أن تقرأ وأن تعرف وكأن العلم قد كتب لها كما قيضت هى له فالسيدة نفيسة رضى الله عنها هى خير مثال على قوله تعالى «هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون» كما أنها ابنة مكة مهبط الوحى وربيبة المدينة المنورة أول من بارك دعوة جدها الرسول صلى الله عليه وسلم. وقد ولدت السيدة نفيسة كما تذكر كتب التاريخ فى العام الخامس والأربعين بعد المائة من الهجرة، وقد فرح بها والدها كثيرا وكان خير مثال للأب الذى يحنو على الإبنة وكيف لا يكون وهو حفيد الرسول صلى الله عليه وسلم الذى استوصى بالنساء خيرا.

وكان قد بلغ به الحب والاهتمام بابنته إلى حد أنه حينما ولى أمر المدينة كان يأخذها إلى قبر النبى «ص» ويقول: ياسيدى أنا راض عن ابنتك نفيسة فأرض عنها. فرأى فى منامه رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ياحسن أنا راض عن ابنتك نفيسة والحق سبحانه وتعالى راض عنها برضاى. (٢)

ولم تكتف نفيسة بما تعرفه من أهلها من علم فكما يشير د. حمزة النشرتى فى كتابه «سيرة آل بيت النبى» أن الامام مالك رضى الله عنه كان استاذها وأنها قد التقت فى حياتها فيما بعد بالكثير من الأئمة مثل أحمد بن حنبل وبشر بن الحارث والامام الشافعى الذين كانوا يأتون ليطلبوا منها أن تدعو لهم مثلما كان يفعل المصريون.

وكان الامام الشافعى رضى الله عنه يسألها الدعاء كثيرا وكان لا يطمئن أن يأتيه الشفاء من أى مرض أو الإقالة من أية عثرة إلا بدعائها، وقد ظلت على عهدها معه بالدعاء حتى أيامه الأخيرة حين دعت ربها قائلة: أحسن الله لقاءه. ويقال متعه الله بالنظر إلى وجهه الكريم، فعرف الشافعى أنه قد وصل إلى نهاية مشواره فى مصر وأن الله متوفيه بها .وقد كان مشوار الشافعى طويلا خاصة وقد عرف عنه حب التنقل كما عرف عنه حب العلم فقد ذهب إلى اليمن وبغداد والموصل ومكة والمدينة حتى رسا قاربه أخيرا فى مصر وكتب بها أعظم كتبه «الأم» والذى قد فرغ من حياته بفراغه من كتابه.

وقد كان الشافعى تقيا ورعا ولهذا صلت عليه السيدة نفيسة عند موته وقالت عنه: رحم الله الشافعى فقد كان يحسن الوضوء.

* الواصلون

قد يتساءل الناس عن سر اختيار السيدة نفيسة لمصر وبقائها بها لسبع سنوات تمت بوفاتها.

فما الذى جاء بالسيدة نفيسة العابدة إلى بر مصر المحروسة وهى ابنة مكة والمدينة وهى من حجت ثلاثين حجة كانت خلالها تمشى كثيرا وتبكى بكاءا شديدا وتدعو الله:

إلهى وسيدى ومولاى متعتى وفرحتى برضاك عنى فلا تسبب لى سببا به عنك تحجبنى.

فلم يحجبها الله عز وجل عنه. وكتب بلها كل هذا العدد من الحجات. وإراد لها أيضا الخير الكثير فى مصر.

ويقال ان آل البيت قد أرادوا أن يبتعدوا عن ويلات السياسة فرأوا فى مصر ملاذا. إلا أن التفسير عندى هو أن الله قد أراد لمصر دائما الخير الكبير عندما جعلها مرفأ لأهل البيت .

وقد جاءت السيدة نفيسة إلى مصر مع زوجها اسحق المؤتمن بن جعفر الصادق حفيد الإمام الحسين واستقبلها الناس عند مشارف العريش حتى استقرت فى منزل جمال الدين عبد الله وهو أحد كبار التجار الذى شرف بإقامة الأسرة لديه حتى انتقلت إلى منزلها الذى أقيم عليه مشهدها ومسجدها.

ويقال إن الناس كانوا يزدحمون على بابها ليل نهار حتى أنها طلبت أن تخصص لهم يوما لتتفرغ لعبادة الله.

* الراحمون

وتقضى السيدة نفيسة السنوات السبع الأخيرة من حياتها فى مصر. وكانت إذا طلب منها زوجها العودة إلى المدينة ترفض. فقد رأت فى منامها رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرها ألا ترحل من مصر فإن الله تبارك وتعالى متوفيها بها.

ويقال إنها عندما شعرت بدنو أجلها حفرت قبرا لها فى بيتها بيديها وكانت تنزل فيه لتصلى وتقرأ القرآن حتى جاوزت المائة والتسعين ختمة، حتى إذا جاءت أول جمعة من شهر رمضان ووصلت إلى قوله تعالى «لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون» تلقى السيدة نفيسة وجه ربها، دون أن ترفق بنفسها فقد كانت حتى اللحظات الأخيرة من حياتها تصوم النهار وتخلص الليل لذكر الله عز وجل.

فمما يذكر للسيدة نفيسة أنها سئلت يوما: لم لا ترفقين بنفسك فقالت وكيف أرفق بنفسى وقدامى عقبات لا يقطعها إلا الفائزون. (٥)

وعندما رحلت سأل المصريون زوجها أن يدفنها فى أرض مصر. ولما رفض جمعوا له كل ما يملكون من مال لعله يرضى.

إلا أن هذا الحال قد تبدل تماما عندما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منامه وهو يخبره أن يرد عليهم أموالهم وأن يدفنها عندهم. فلا يعارض أهل مصر فى شأن نفيسة فإن الرحمة تنزل عليهم ببركاتها.

وهكذا كانت مصر ولا تزال تحب السيدة نفيسة التى كانت تقول: إن الصبر يلازم المؤمن بقدر ما فى قلبه من إيمان وحسب الصابر أن الله معه.

فمنذ الزمن البعيد وهم يتطبعون بذكراها ويقفون عند المسجد العظيم والذى هو غاية فى الحسن لما فيه من الذهب وأنواع النحاس كما حكى الرحالة المغربى خالد البلوى.

وفى جدار قبة المسجد باب يؤدى إلى قبة عجيبة تتوقد ذهبا. ولهذا لم يكن مستغربا أن يأتوا إليها من كل عصر ومكان، فلا يزال الناس يذكرون يومى السبت والأربعاء حين كانوا يأتون ليأنسوا إليها ولا الفتاة اليهودية

المقعدة التى استخدمت نفس ماء وضوء السيدة نفيسة فزال عنها كساحها وشفاها الله سبحانه وتعالى فأسلم أبوها وأمها وأكثر من سبعين بيتا من اليهود لمحبتهم للسيدة نفيسة الواثقة بربها. ويذكر العلامة على مبارك انه قد حبس على المشهد ربع مائة وخمسين فدانا وعددا من الرباع (جمع ربع) والحوانيت للصرف عليها بالإضافة إليصندوق النذور والذى كان يدر على المسجد وقتها ما قيمته خمسة وعشرين ألف قرش إلا أن الزمن لم يتوقف عند هذا الحد. فكثيرا ماشهد مسجد السيدة نفيسة الكثير من التوسعات وكثيرا ما شهدت أحباب لها من المصريين المحبين لصاحبة القلب الكبير .

فهذه هى السيدة النفيسة الطاهرة... وهذا هو حديث القلب والعقل معا.

الفصل التاسع

الشقيقان سكينة وعلى ... البحث عن الصبر والأمان فى مصر

فى كل بيت... لابد لكل أب من مقعد يختاره بنفسه ولنفسه، وقد لايتعمد بالفعل هذا الأختيار ولكن على هذا المقعد يطيب له أن يجلس وسط أسرته لتدور الحياة دورتها ومعها الكثير من الأحداث والأحاديث.

فإذا ذهب يوما بقى المقعد خاليا... وهل هناك من يجرؤ على الجلوس عليه؟!

سؤال أعرف إجابته لأننى بالفعل لا أعتقد فالمشاعر لا تتغير فى حينها، ولكنه الزمن الذى يغير كل شئ ويخفت من صوت أحزاننا. هذا ما يحدث فى كل بيت وفى كل زمان ومكان. ولكن هل يحدث هذا مثلا فى بيت رجل كالإمام الحسين رضى الله عنه؟!! سؤال تصعب الاجابة عنه أوحتى تخيله.

فبعد أن ذهب الحسين أو بالأدق قتل ، بقى مقعده يسأل عنه، ومكان صلاته يبكيه، وكلامه مع الناس يبحث عنه دون جدوى.

لقد ذهب ليترك المقعد وسجادة الصلاة والحب وقد أصابتها جميعا الوحدة ، والكدر ، وترك لهم مهمة فيما ترك أولادا لهم دورهم وهم فاطمة، وعلى، وسكينة فكيف بحق الله كانت أيامهم وكيف كان الدعاء والبحث عن الصبر والاحتمال؟!!!

* فى بر مصر

قبل أن نذهب هنا وهناك للبحث عن إجابات لكل سؤال، وقبل أن يأخذنا الكلام بعيدا، لابد لنا من وقفة على أرض مصر. ويكفى أن نشير فى البداية إلى أنه على أرضها المحروسة وتحديدا بمنطقة الخليفة بالقاهرة يوجد جامع وضريح باسم السيدة سكينة. ففى الذاكرة المصرية توجد مكانة خاصة للسيدة سكينة التى كانت أول من جاء إلى مصر من صلب سيدنا الحسين رضى الله عنه. أما عن قصة الرحلة إلى مصر فهى تخضع لأكثر من تفسير،

فهناك من يقول إنها جاءت لتتزوج الأصبغ بن عبدالعزيز بن مروان. وآخر يؤكد أنها جاءت مع عمتها السيدة زينب رضى الله عنها بعد حادثة كربلاء السوداء، ورغم أن قصة مجيئها إلى مصر مؤكدة إلا أنه لا أحد يعلم على وجه اليقين إن كانت بالفعل قد بقيت فى مصر أم لا.

فما نستطيع تأكيده فقط هو وجود مسجدها الذى يعود إلى زمن الأمير عبد الرحمن كتخدا والذى قد جدد أكثر من مرة على مر السنين.

فالمصريون يحبون السيدة سكينة لأنها عاشت بينهم لفترة. ولهذا يؤكد الامام الشعرانى أن السيدة نفيسة قد وجدت الناس فى مصر يذكرون عمتها سكينة. ومعنى ذلك انها قد بقيت حينا بينهم، وربما تكون قد دفنت فى مصر أيضا. وكما يشير الكاتب أحمد أبو كف فى كتابه آل بيت النبى فى مصر أن هناك أكثر من دليل يؤكد وجودها على أرض مصر .وأول هذه الأدلة ما كتب على المسجد من شعر:

حرم يابنت الحسين مؤرخ

لسكينة تصبو المواهب كلها

ذا مسجد يا آل طه مؤرخ

شمس هدى بنت الحسين سكينة (١)

ورغم أن المصريين يصرون على حقيقة وجودها فهناك على الجانب الآخر من يؤكد أنها دفنت بالمدينة المنورة. إلا أن هذا لا يمنع وجود هذا الضريح الفخيم الذى تفنن المصريون فى الإضافة إليه، ففى عهد عباس باشا الذى أعقب محمد على باشا الكبير رفع المسجد وفى عهد الخديو عباس حلمى جددت قبته ومسجده.

وأما الجامع والمقام الآخر الذى يحتفى به المصريون أيضا فهو لمولانا على زين العابدين شقيق السيدة سكينة وابن مولانا الحسين. ويقال إن على زين العابدين قد دفن بالبقيع بالمدينة المنورة ثم نقلت رفاته إلى القاهرة المعزية. وقد جاء فى كتاب مساجد مصر وأولياؤها الصالحون «أن المسجد الحالى يرجع إلى أوائل القرن التاسع عشر وأن معظم مبانيه قد جددها عثمان أغا مستحفظان.

أما عمارة الدولة الفاطمية ـ أول من أقام المسجد والضريح ـ فلم يبق منها سوى عقد واحد يوجد بالطرقة الداخلية على يمين الداخل من رواق القبلة . وقد كتب على مدخل المسجد: بسم الله الرحمن الرحيم هذا مشهد الإمام على زين العابدين بن الإمام الحسين بن الإمام على بن أبى طالب فى ٥٤٩ هـ. (٢)

وتعود قبة الضريح إلى العصر المملوكى . وقد جدد مقصورتها بعدها بسنوات طويلة محمد قفطان باشا فى العصر العثمانى وهو أيضا من وضع على بابها بلاطات من القيشانى العثمانى الأزرق ليزيد المكان بهاء وروعة وإن كانت قصة الشقيقين فى رأيى أكثر روعة وجمالا.. فما هى قصة على وسكينة رضى الله عنهما وأرضاهما ؟

* زمن لا يحل فيه البكاء

فى زمن آخر غير زماننا بدأت قصة السيدة سكينة أو آمنة بنت الحسين بن على بن أبى طالب والتى ولدت عام ٤٧ هـ مدللة كالقمر ، فهى ابنة الحسين ورباب بنت أمرىء القيس بن عدى، وهى حفيدة آمنة بنت وهب أم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى الآمنة فى الدنيا والآخرة بوليدها ، فأحب الحسين أن تكون ابنته هى الأخرى آمنة وإن كانت قد أشتهرت باسم

سكينة كما كانت تدعوها أمها رباب التى كانت ترى فى وجودها كل الجمال والسكينة.

وتصل سكينة إلى سنوات الصبا الأولى وسط حب والدها وتدليل والدتها وذلك النور الجميل الذى يضئ كل بيوت أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم فلا تجد متعة أكبر من التعبد والصلاة، فذكر الله هو الحكمة التى لا يلام عليها أحد والتى عرفتها سكينة سنوات قبل مقتل والدها فى كربلاء.. ولهذا أحبت سكينة الحكمة وكلام العرب واليوم الذى تعيشه. فقد كانت ورعة زاهدة عما فى أيدى غيرها، تعشق الجمال والتأنق فى الحديث والملبس.

وللشعر والأدب قصة فى حياة السيدة سكينة فقد كانت من أجلهما تفتح قلبها وعقلها لكل كلمة جميلة تقال فى صفات أهل البيت. وكانت إلى جانب هذا متواضعة لا تتفاخر فالحكمة عطية خاصة لا يحصل عليها الكثيرون ولا يعرفها إلا من كابد ألم الفراق والخوف والفرار إلى الله تعالى.

إلا أن هذه الفطنة وتلك الحكمة قد جاءت بعد سنوات ليست بالكثيرة فكربلاء يوم أسود فى ذاكرة المسلمين، وقد كانت سكينة واحدة من ضمن النساء اللاتى احتمين بخيمة الحسين وهى التى بكت عندما شعرت أن الدنيا قد دارت على والدها الحسين وهى التى قال لها والدها حتى يتوقف دمعها.. أفلا يهون عليك الأمر أننى أدفع حياتى دفاعا عن حق ودفعاً لباطل. فقد كان الحسين يعلم أنه غدا سوف يلاقى جده الرسول صلى الله عليه وسلم وأمه فاطمة ووالده على وأخاه الحسن وابن عمه مسلم بن عقيل.

وقد كان بكاؤها حارا تهتز له القلوب، وكانت كلمة الحسين لها أشد وخزا فى القلب. وهو يودعها.. سيطول بعدى عنك ياسكينة... فهلا ادخرت البكاء لغد وما غد ببعيد؟ (٣)

ويأتى الغد الذى انتظره سيدنا الحسين وترى بعينيها مقتل أبيها وقد ذهب الرأس والجسم كل فى مكان وإلى جانبه أخوتها عبدالله وعلى الأكبر وجعفر.

وتحاول أن تتعلق بأشلاء أبيها وهى تقاد بعيدا عن المكان مع جند يزيد بن معاوية. وتبكى عند الجسد الطاهر بعد ان ذهب ظل الحسين الذى لم يعد ممكنا أن يظللها فى هذه الحياة فهذه هى العنق تنحر والرأس تجز والجسد يحمل أكثر من ثلاثين طعنة تشهد على الجرم الذى سوف يظل معلقا فى أعناق من فعلوها إلى يوم يبعثون..

وفى مصر تجد السيدة سكينة أناسا يحمدون ربهم كثيرا.. ولكنها تعود لتتزوج مصعب بن الزبير الذى دعا الله تعالى فى الكعبة أن يتزوجها لتزف إليه فى العشرين من العمر إلا أنه سرعان ما ذهب الزوج هو الآخر فى صراعه على السلطة مع عبد الملك بن مروان، بعد أن انجبت منه ابنتها الجميلة رباب التى كانت أجمل من كل الجواهر، وان كانت الفتاة الأبهر جمالا لم تعش هى الأخرى كثيرا كأنما كتب على السيدة سكينة أن تختبر بكل هذا الفقدان.

ثم تتزوج سكينة من عبد الله بن عثمان بن عبد الله وتنجب منه عدة أولاد ولكنه يموت لترتبط من جديد بزوج شديد البخل وهو يزيد بن عمرو العثمانى الذى أفسد بخله فى الأموال وفى العواطف كل شئ . لتخرج سكينة من حزن لحزن ومن فراق الأحباب إلى فراق الأبواب.

فيكفى ماحدث فى كربلاء لأبيها، ويكفى ماحدث عندما حاول أحد الحضور أن يسلب أختها فاطمة حريتها بأن يطلبها جارية من يزيد بن معاوية لولا جرأة عمتها زينب، ويكفى موت العمة زينب فى مصر ومكوثها هى بعد ذلك بالمدينة المنورة فى كنف أخيها السجاد على زين العابدين رضى الله عنه ثم استباحة جند

يزيد للمدينة وقتلهم أهلها ودون ذلك سلسلة طويلة من المآسى.

ويقول ابن زولاق انها أول من دخل مصر من ولد على. وتؤكد الدكتورة بنت الشاطئ أنه إذا صحت رواية صحبتها لعمتها فقد عادت إلى الحجاز بعد وفاة عمتها.

وأما الشعرانى فيقول ان السيدة سكينة بنت الحسين هى التى فى مصر وقبرها بالقاهرة بالقرب من السيدة نفيسة رضى الله عنها. وان كان هناك من يقول أن وفاتها قد حدثت بالمدينة أو بمكة.

إلا أن الإمام السخاوى فى كتابه «تحفة الأحباب» يؤكد أن السيدة سكينة التى بمصر هى السيدة سكينة بنت الإمام على زين العابدين بن الإمام الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم وأرضاهم جميعا. وكان سبب قدومها إلى مصر أن الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان خطبها فلما وصلت إلى أبواب مصر مات الأصبغ وماتت هى أيضا بكرا فى مصر، فقد أراد الأصبغ أن يتزوج سكينة الكبرى بنت الحسين ولم يستطع فأراد سكينة الصغرى فلم يتزوج أيّا منهما. (٤)

وتتعدد القصص وتظل سكينَة فى النهاية ابنة رباب وأم رباب هى صاحبة الجمال والعلم وهى محبة الشعر التى يتذكرها المصريون، والتى لم يصدأ قلبها أبدا. رغم كل ما حدث وما قد اختبرت به من فراق الأحباب كما اختار الله تعالى لها.

* القلوب معلقة بمحبتك

- مااسمك؟

- أنا على بن الحسين

ـ أولم يقتل الله على بن الحسين.

فسكت فقال له ابن زياد: مالك لا تتكلم.

فقال: قد كان لى أخ يقال له أيضا على فقتله الناس

ـ إن الله قد قتله

فسكت عليا فقال له: مالك لا تتكلم؟

قال على: «الله يتوفى الأنفس حين موتها» «وماكان لنفس أن تموت إلا بإذن الله». (٥)

هذا حديث دار بين ابن زياد وسيدنا على زين العابدين بن الحسين عقب معركة كربلاء وقد كتبه عبد الحميد جودة السحار فى رائعته «أهل بيت النبى».

وأما على زين العابدين الذى كان فارسا للكلمة فى هذه المحاورة فهو الصبى المريض الذى منعه مرضه من أن يحمل سلاحا هو الآخر ويقاتل فى صف أبيه.

ولهذا انجاه الله، وألقى فى قلب عمته زينب قوة غريبة تدافع بها عن الصبى الذى كان آخر من تبقى من نسل الحسين من الرجال.

ويقال ان هذا لم يكن لقاء على زين العابدين الوحيد مع الموت، ففى نفس المكان فى كربلاء أراد شمر بن الجوشن قاتل أبيه أن يقتله فوجد من يقول له... أتقتل الصبيان؟!

وقد نجا على فى المرة الأولى وفى الثانية رغم ماقاله لاعداء ابيه من أنهم ظلموا وتجبروا.

ولا عجب فى قوة منطق على ولا فى قدرته على التحاور أوليس هو على زين العابدين وليد ابن السيدة فاطمة الزهراء ابنة الرسول وجدته والامام على بن أبى طالب أول من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم من الصبية وهو ابن الحسين الشريف الكريم أفضل العرب وابن سلافة ويقال اسمها شهربانو بالفارسية - بنت يزدجرد آخر ملوك فارس قبل دخول الإسلام.

فكم كانت شهربانو محظوظة رغم أسرها باختيارها واختيار سيدنا الحسين لها زوجا تلد له سيدا فى العرب وسيدا فى العجم وسيدا فى الدنيا والآخرة كما قال جده الإمام على كرم الله وجهه.

فقد يحسب لشهربانو تمدنها ولكن الإسلام قد أضاف إلى أصولها الفارسية الإيرانية عزة وكرامة ورقة إمتدت إلى ابنها.

وقد أسهب كل من الدكتور حسين مجيب المصرى والدكتور عبد الرحمن بدوى فى وصف شخصية شهربانو الأم. ففى كتابه سلمان الفارسى اعتبر الدكتور حسين مجيب المصرى أن شهربانو شخصية ذات اختيار وإرادة فقد اختارت أن تقترن بسيدنا الحسين بكامل إرادتها وقد جلست فى منزل مواطنها سلمان الفارسى لزمن تستعرض فيه الخاطبين حتى رضت بالإمام الحسين.(٦)

وأما الدكتور عبدالرحمن بدوى فانه في الجزء الثانى من كتابه سيرة حياتى يستعرض مشاهد ممثلة بأسم «تعزية وتعزية خان» تظهر فيها شهربانو وقد هربت إلى مدينة الرى «طهران» على فرس الحسين المسمى بذى الجناح وأخوها الذى سار على رأس جيش ليحول دون وقوعها فى أيدى جنود الشام الأمويين ويلتقى بها ويعدّ لمواجهة شمر بن ذى الجوشن وابن سعد والمطالبة باستعادة نساء الحسين، ولكن ابن سعد يرفض تسليم النساء

باستثناء ابنة زوجة الحسين «بنت يزدجرد الثالث» لأنها أرملة القاسم.(٧)

وعلى الرغم من الأهمية التى تمثلها هذه السيدة فى الأدبيات الفارسية فإن مكانة أبنها على زين العابدين لا يمكن أن تترك دون أن نقف عندها.

فلم يكن مستغربا أن يقرأ القرآن ويصبح من أكثر أهل البيت تفقها وعلما، فهو كما يقول الفرزدق:

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته

والبيت يعرفه والحل والحرم

هذا ابن خير عباد الله كلهم

هذا التقى النقى الطاهر العلم (٨)

وهو صاحب الصدقة الذى لا تعلم يساره ما انفقت يمينه، وهو الحليم الصادق الذى يخشى نار الله ولا يخشى نار الدنيا، وهو من كان يسأل الله تعالى كل ليلة بالدعاء فيقول:

«اللهم اجعلنا ممن دأبهم الإرتياح إليك والحنين، وجباههم ساجدة لعظمتك، وعيونهم ساهرة فى خدمتك، ودموعهم سائلة من خشيتك، وقلوبهم معلقة بمحبتك» (٩)

فهكذا يكون الدعاء وهكذا يكون القلب، ولهذا كان على زين العابدين هو الساجد، وذلك انه أقرب مايكون العبد إلى ربه وهو ساجد فاشتهر بلقب السجاد. وكان ممن يلازمون المدينة وأهلها الطيبين ومناخها الطاهر وكان يعشق صدقة الليل التى تطفئ غضب الرب حتى أنه عندما مات عرف عنه أنه كان يحمل الصدقات إلى البيوت، وقد ظهرت آثار حمل الصدقات على

ظهره.. فما أكثر جرب الدقيق التى حملها للفقراء حيث كانوا.

وكان يحب العفو ويعتبر فقد الأحبة غربة.

وقد قال لابنه وهو يوصيه:

«يابنى لا تصحب فاسقا فإنه يبيعك بأكلة، وأقل منها، يطمع فيها ثم لا ينالها. ولا بخيلا فإنه يخذلك فى مال أحوج ماتكون إليه، ولا كذابا فانه كالسراب يقرب منك البعيد ويباعد عنك القريب.. ولا أحمق فانه يريد أن ينفعك فيضرك، ولاقاطع رحم، فإنه ملعون فى كتاب الله تعالى «فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم، أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم» (١٠)

وهكذا الأيام وهى تسرع وتطوى صفحات الناس حيث تفضى حياة سكينة صاحبة أقوى عقل وقلب بين نساء بيتها، وكذلك حياة على زين العابدين أبر الناس بأهله وأمه وأبيه، وهى الحياة التى لم تمتد لأكثر من سبعة وخمسين عاما، ولكن هل ينسى أحد فى بر مصر السيدة سكينة أو سيدنا على زين العابدين. وهل يخلو أى من مسجديهما من آلاف البشر الذين لايزالون يتذكرونهما. فلا أعتقد أن المساجد تخلو ولا أن الصلاة تغفل ولا أن الأيام تنسى أفضل من عاشها.

الفصل العاشر

الإمام الشافعى: رسالة حب إلى الطير المسافر

فى بر مصر المحروسة.. لايزال هناك الكثير والكثير من أهل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم الذين يعرفهم المصريون ويتناقلون عنهم الروايات والحكايات جيلا بعد جيل، وتتنوع القصص المصرية لأهل البيت فهناك من يحكى عن السيدتين عائشة ورقية الشابتين، وهناك من يذكر سيدى حسن الأنور وسيدى يزيد بن على زين العابدين وغيرهم، إلا أن من بين مايحكى قصة لقطب ورع شرفت مصر بقدومه إليها وهو أبو عبدالله محمد بن إدريس بن العباس الذى يلتقى مع الرسول الكريم فى جده عبدمناف، والمعروف بين الناس بإسم الإمام الشافعى صاحب أحد المذاهب الأربعة الشهيرة فى تاريخ الإسلام.

* رسائل إلى الإمام الشافعى

والقصة التى يمكن أن أرويها عن الإمام الشافعى رضى الله عنه قصة تبدو غريبة، فهى على غير عادة القصص تحتفظ ببداية معروفة ومحددة باليوم الذى ولد فيه الإمام الشافعى بغزة عام ١٥٠هـ ولكن النهاية مع هذا تحمل أكثر من تفسير.

فإلى الآن يتلقى الإمام الشافعى قاضى القضاة رسائل يكتبها المصريون إليه يشكون فيها ويطلبون منه البت فى بعض أمورهم الشخصية، فهذه زوجة تشكو إليه زوجها، وهذا شيخ يشكو إليه جحود الأبناء فى زمن شيبته وهوانه.

فبريد الإمام الشافعى كما ينبئنا عالم الاجتماع الجليل د. سيد عويس يكتظ بالكثير من الرسائل التى يكتبها أهل مصر على عنوانه فى منطقة الإمام الشافعى حيث تلتزم قبته ومسجده مكانهما منذ سنوات طويلة.

ويشير د. سيد عويس إلى أنه «تبين أن الإمام الشافعى فى عقول

مرسلى الرسائل هو شخص حى على الرغم من مرور نحو ألف ومائة وخمسين سنة ميلادية تقريبا منذ وفاته، وأن هؤلاء يخلعون عليه الكثير من الخلال والصفات باعتبار أنه شخص ذو سلطان.

وقد وجدنا مرسلى الرسائل وخاصة الشاكون منهم يحقرون من شأن أنفسهم ويصفونها فى مستوى الذل والمهانة ويبدون كأنهم مغلوبون على أمرهم ولاكرامة عندهم سواء خاطبوا الإمام الشافعى بالنثر أو بالشعر.

وقد تبين أن مرسلى الرسائل إلى ضريح الإمام الشافعى قد ضمنوا رسائلهم شكاوى وطلبات، كان عدد الشكاوى أقل من عدد الطلبات، وكانت نسبة عدد الشاكيات الإناث أكبر من نسبة عدد الشاكين الذكور، وكانت شكاوى مرسلى الرسائل خمسة أنواع، وتبين أن أكثر الأنواع التى أمكن تحديدها هو شكاوى الاعتداء على الأموال وتليها شكاوى الاعتداء على الأشخاص، ثم الشكاوى فى نطاق الأسرة، ثم الشكاوى فى نطاق العمل.

ولعل ارسال الرسائل من الأمور التي كان يمارسها أجدادنا المصريون القدماء.. ولعلنا نتساءل عن موضوع العناصر الثقافية الباقية، فلماذا جدد الزارع المصرى فى الحقل أدواته فى الزراعة والرى ونوع فيها على مر الزمن، لماذا جدد أنواع محصولاته، لماذا غير المصريون لغتهم التى يتكلمون والتى يكتبون بها أكثر من مرة خلال تاريخهم، هل الاستعمار الطويل الذى عاناه المصريون هو السبب ؟ هل كانت رواسب الظلم والقهر والاستبداد مسئولة عن معاناة الكثير من المصريين ومن ثم تجدهم متمسكين بمواجهة الانتظار.. مجرد سؤال؟[١]

وبعيدا عن الرسائل تبدو القبة والضريح بشكل خاص ومميز فكما يقول

المسعودى يتميز الضريح بوضع عمود حجرى ضخم عند الرأس وآخر عند قدميه وقد نقش على عمود الرأس «هذه مقبرة الإمام محمد بن الإدريس الشافعى المؤمن بالله».

وتؤكد د. سعاد ماهر أن صلاح الدين الأيوبى أول من أمر ببناء مدرسة بجوار الضريح فى رمضان عام ٥٧٥هـ، كما أمر بصنع تابوت خشبى للإمام، ولاغرابة فى هذا فقد كان الأيوبيون من محبى الإمام الشافعى حتى أنه يقال إن الملك الكامل قد دفن ابنه بجوار قبر الإمام الشافعى وبنى قبة على القبر.

وعندما جاء زمن المماليك لم يكونوا أقل من سابقيهم عناية بالإمام الذى يحبه المصريون، فمما يذكر أن الكثير من الإصلاحات بالضريح قد تمت فى عصر السلطان قايتباى ومن بعده السلطان الغورى آخر سلاطين المماليك والذى كان محبا للعمارة، فكما أصلح من قلعة الجبل ومسجد الإمام الليث ومنارة الأزهر وبوابات القاهرة وخان الخليلى فانه أمر بتجديد قبة الشافعى.

ويقول الجبرتى أنه فى زمن العصر العثمانى أصلح على بك الكبير الزخارف الداخلية وجدد القبة وأضاف إليها فيما بعد الأمير عبدالرحمن كتخدا بعض اللمسات الجمالية.

ويعتبر ضريح الإمام الشافعى من أهم الآثار الإسلامية وأكبر الأضرحة الموجودة فى بر مصر، ويتكون من طابقين تميزهما الزخارف التى تشبه الزخارف التى تعلو المحاريب الفاطمية، كما يميز الضريح أيضا وجود بابين والرخام الأبيض والأعتاب الخشبية، ويقال إنه كانت للضريح أبواب أخرى أخذت منه لتلحق بجامع الإمام الليث.

وهناك باب بالفعل فى متحف الفن الإسلامى بباب الخلق، وأما القبة التى تعلو الضريح فتميزها الألواح الخشبية والصفائح القصديرية التى

تغطيها والمركب الذى يبلغ طوله حوالى مترين.. فما حكاية المركب ولماذا يبدو هكذا مثبتا فوق القبة؟!!.

* الرحالة الإمام

ولكى نعرف حكاية هذه السفينة علينا أن نعود بالزمن إلى عام ١٥٠هـ وهو نفس العام الذى توفى فيه الإمام أبو حنيفة، وإلى مدينة غزة بفلسطين حيث ولد الإمام الشافعى الذى لم يلبث أن انتقلت به أمه فاطمة الأزدية إلى مكة.

ولأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وصف قبيلة أمه وعائلتها الأزد بأنهم أسد الله فى الأرض فقد أرادت أن تخلص ابنها لطلب العلم والتثبت من اللغة العربية حتى فى أقسى الظروف فقرا وعوزا.

ولهذا حفظ الشافعى القرآن الكريم والأحاديث النبوية وهو مازال طفلا صغيرا، ورحل إلى البادية حيث قبيلة هذيل التى ثبتت عربيته ولغته حتى التقى يوما بمسلم بن خالد الزنجى مفتى مكة.

وقد سأله المفتى عن أصله ونسبه فأجابه بأنه من بنى عبد مناف، فنصحه المفتى بأن يجعل همه الفقه والعبادة لا الأدب واللغة.

وبالفعل تغير مقولة مسلم بن خالد مسيرة تاريخ الشافعى ويبدأ فى دراسة الفقه حتى يبلغه أمر وجود الإمام مالك بالمدينة فيرحل إليها ليأخذ العلم عن الإمام.

وقد ظل يصحبه أينما يذهب حتى توفى الله الإمام مالك عام ١٧٩هـ فيقرر الشافعى الرحيل مرة أخرى، ويكون السبب فى الرحيل هذه المرة هو طلبه الإفتاء بأرض نجران باليمن ، إلا أنه ورغم نجاحه الذى حققه وهو وفى

سن صغيرة يتعرض للوشاية من حاكم نجران الذى يتهمه بالتشيع للإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ومحاولة نقل الخلافة من العباسيين إلى العلويين، ولكى يحيك الحاكم المكيدة فانه يزج بأسماء تسعة أشخاص معه حتى يثبت الأمر لدى أمير المؤمنين هارون الرشيد، إلا أن ثقة الشافعى فى الله وفصاحته أفسدت على حاكم نجران الأمر كله، وتفرغ الشافعى من بعدها لدراسة العلم على يد الشيبانى صاحب أبى حنيفة فى بغداد والذى كان يدافع عن إعمال العقل.

ويعود الإمام الشافعى إلى مكة حيث يقابل ابن حنبل الذى أخذ عنه، واعتبر الشافعى استاذا له ، ثم تنتهى فترة مكثه بمكة ليذهب بعدها إلى بغداد ليستقر بها بعض الوقت ويؤلف كتابه المهم «الرسالة» الذى وضع به أساس علم الفقه.

وفى بغداد تدعو الحياة الإمام الشافعى مرة أخرى للرحيل، فقد أصبحت بغداد فى هذا الوقت غريبة عنه.. وخاصة بعد أن ذهب الرشيد وجاء ولده المأمون فيقرر أن يرحل وأن تكون مصر وجهته هذه المرة، فقد دعته مصر إلى المجيء إليها على لسان واليها العباس بن عبدالله.

* الطير المسافر فى مركب الإمام

فى مصر يستقر الحال بالإمام الشافعى لمدة تزيد على أربعة أعوام ويقال خمسة يعتبرها من أفضل سنوات عمره وأخصبها وأوسعها رزقا.

فقد تقبل المصريون المحبون لآل البيت وأئمة الفقه والسنة والحديث والعابدون لله والواصلون وجوده بينهم حتى إنه يقال أن هذا المناخ من التبسط والوسطية الذى يعرفه المصريون ويتمسكون به هو السبب فى تبلور مذهب الشافعى الذى ضمنه فى كتابه «الأم» فقد أشعرته مصر بدفء شمسها وكرم ناسها وأرضها والطمأنينة التى تعلو الوجوه بالأمن والأمان.

ولهذا فقد كان معروفا عن الشافعى أنه قضى هذه السنوات الأربع فى بحث متواصل ودرس مستمر.

فحلقات الدرس كانت لاتنفض من بيته، وهو يفعل كل هذا وهو يتحرى الصدق والدقة فى كل مايشرح من آيات القرآن الكريم، فقد كان عالما بعلم الأصول ومحبا لأهل بيت الرسول وخاصة الإمام على بن أبى طالب الذى كان يحترمه كثيرا لشجاعته وزهده وعلمه وشرفه.

وقد كانت زاوية الخشابية فى جامع عمرو بن العاص شاهدا على الكثير من حياة إمامنا الشافعى رغم أن الفترة التى قضاها بمصر كانت قصيرة نسبيا، فقد كان قبل مصر يعشق الترحال ويتذكر قول الرسول صلى الله عليه وسلم بكروا على اسم الله تعالى قبل أن تسافروا.

فقد دخل الشافعى إلى مصر فى شوال عام ١٩٩ ورحل عنها وعن الحياة فى آخر ليلة من شهر رجب عام ٢٠٤هـ حيث تحقق ظنه فى مصر التى قال فيها:

فوالله ماأدرى للفوز والغنى

أساق إليها أم أساق إلى القبر؟(٢)

وفى مصر يكتب على أبواب قبته:

الشافعى إمام الناس كلهم

فى العلم والحلم والعلياء والبأس

له الإمامة فى الدنيا مسلمة

كما الخلافة فى أولاد عباس

أصحابه خير أصحاب ومذهبه

خير المذاهب عندالله والناس [٣]

وأما المركب الصغير الذى اعتبر أهم مايؤخذ عن حياة الإمام الرحالة والذى قد رسى بعد رحلة عمر طويلة من غزة إلى مكة ثم إلى المدينة فاليمن فالكوفة وبغداد فهو يعبر عن السفر والترحال، وقد يعبر كما يقول الإمام البوصيرى صاحب البردة عن ركابه فى طوفان العلم، فكما يقول:

بقية قبر الشافعى سفينة

رست فى بناء محكم فوق جليود

وقد غاص طوفان العلم بقبره

استوى الفلك من ذاك الضريح على الجودى [٤]

وأما التفسير الثالث فهو فى صف الصدقة الجارية وإطعام الطير الذى يحلق فى السماء أوليس هذا الطير هو الآخر على سفر، ولهذا لم يفرط المصريون أبدا فى الشافعى رغم أن واليهم بدر الجمالى حاول يومانقل رفاته للتبرك به فكادوا يثورون عليه ولم يتركوا قبر الشافعى حتى تراجع الوالى عن فكرته أو ربما تناسى الفكرة كلها.

فمازالت هناك الكثير من الرسائل التى يرسلها المصريون إلى الإمام الشافعى ، ولتكن هذه واحدة منها على عنوانه «رسالة حب إلى الطير المسافر».

الفصل الحادى عشر

طرقات على أبواب مصر المحروسة

وأما القصة التى أحكيها الآن... فهى ليست لشخص بعينه يضمه فرع من فروع آل البيت.

فهى مجموعة من القصص لمجموعة من الأشخاص خصوا مصر بإقامتهم فيها.

وخصتهم مصر بحبها، فهم آل البيت وهم من أهل العلم والطهر وهم كثر خصتهم مصر بحبها، فمنهم فاطمة بنت الحسين ومنهم الحسن الأنور ومنهم زيد بن على زين العابدين ومنهم السيدة رقية وغيرهم رضى الله عنهم أجمعين.

وأما القصة مع مصر فقد تختلف تفاصيلها ولكنها تتكرر فى مدى الحفاوة التى يلقونها من أهل مصر ومدى حبهم لهذه الأرض التى ذكرها الله تعالى فى القرآن الكريم.

فهذه فاطمة بنت الحسين أخت سكينة وعلى زين العابدين وقد شهدت هى الأخرى كربلاء وكانت امرأة جميلة فكادت تسبى وهى أقرب بنات الحسين شبها بأمه فاطمة الزهراء وهى التى تزوجت وانجبت وعمرت حتى ماتت وقد قاربت التسعين عاما. كما أن أبناءها وبناتها قد تزوجوا وعاشوا حياة جيدة وكريمة ويقال إنها دفنت بالبقيع بالمدينة، وهناك من يعتقد أنها دفنت فى مسجدها بالدرب الأحمر.

ويقول العلامة الأجهورى فى كتابه «مشارق الأنوار» إن السيدة فاطمة بنت الإمام الحسين رضى الله عنهما مدفونة خلف الدرب الأحمر بزقاق يعرف باسم فاطمة النبوية فى مسجدها الجليل ومقامها العظيم. وعليه من المهابة والجلالة والوقار ما يسر قلوب الناظرين.... وأما ما اشتهر من أن السيدة فاطمة النبوية مدفونة بدرب سعادة فهو غير صحيح. (١)

وإن كان هناك من يؤكد أن فاطمة الموجودة فى مصر هى واحدة من آل البيت وليست فاطمة بنت الحسين. وهناك من يعتقد أنها من مشاهد الرؤى التى انتشرت لزمن فى مصر المحروسة.

★السيدة رقية

وإذا كان هذا ما حكينا عن مسجد السيدة فاطمة فإن مشهد السيدة رقية المجاور لمسجد السيدة سكينة والسيدة نفيسة يتمتع بطلة متميزة.

وإن كانت إلى الآن لم تحسم قصة رقية التى يعرف مشهدها أهل حى الخليفة فالبعض يقول انها بنت الإمام على كرم الله وجهه وأن أمها هى أم حبيب الصهباء التغلبية والبعض يعتقد إنها ابنة السيدة إمامة والإمام على. ويقول الإمام الليث أنها إبنة الإمام على من فاطمة الزهراء رضى الله عنهما فى حين أن هناك من يؤكد أنها بنت الإمام على الرضا ابن الإمام موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن الباقر بن على زين العابدين بن الإمام الحسين.

ورغم كل هذا فان هناك من يشير إلى أنها من مشاهد الرؤيا التى بنيت فى العصر الفاطمى والذى يماثل إلى حد كبير الجامع الأقمر فى حى النحاسين بالأزهر. وقد أشار المقريزى إلى أن الأميرة علم الآمرية زوجة الخليفة الآمر بأحكام الله الفاطمى هى التى أمرت ببناء هذا الضريح، والذى يتميز بأنه صاحب أجمل الكتابات الكوفية فى الشريط الذى يلف رقبة القبة.

★الحسن الأنور:

ونتوقف عند سيدنا حسن الأنور بن زيد الأبلج بن الحسن بن على بن أبى طالب والذى كان له دوره فى السياسة. فقد تمكن على غير عادة الحكام فى

معاملة آل البيت أن يخرج من دائرة الحصار السياسى إلى نوع من الحراك ، وقد حدث ذلك أثناء توليه إمارة المدينة إلا أن الأمور لم تلبث أن تعود إلى طبيعتها ويلقى به فى السجن حتى جاء المهدى حاكما وخليفة للعباسيين الذى قرر أن يطلق سراحه بعد عامين.

ولعل من يقرأ سيرة سيدى حسن الأنور لا ينسى أن ابنته هى السيدة نفيسة رضى الله عنها وعن والدها، وهو فى الأصل ليس أقل شهرة ولا وضعا من أبنته فهو شيخ الشيوخ وشيخ بنى هاشم ومن تلاميذه الامام مالك. وكان رجلا يعمل بالتجارة مما اتاح له أن يفهم طبائع الناس وكان حاذقا يعرف متى يتكلم ومتى يتوقف عن الكلام. وكان حازما يعرف الفعل الطيب وموضعه.

وكان له الكثير من الأبناء إلى جانب ابنتين احداهما أم كلثوم وكانت متزوجة من أبى العباس السفاح والذى كان له دوره الخطير فى إرساء معالم الخلافة العباسية وأما الأخرى فهى السيدة نفيسة رضى الله عنها وأرضاها.

ويقال أيضا ان محمد الأنور أخاه قد دفن هو الآخر بالقرب من مسجد السيدة سكينة ويقال انه حسن الأنور قد نقلت رفاته إلى مسجده الحالى، ويقال انه دفن فى المنطقة مابين مجراة القلعة وجامع عمرو وقد بنى على القبر قبة الأمير عبدالرحمن كتخدا.

ويعتقد أن الجامع عمر فى عهد الناصر محمد بن قلاوون ولكنه أندثر إلى أن جاء على باشا مبارك وجدده مع ضريح سيدى زيد الأبلج وسيدى جعفر وهما من آل البيت أيضا.

*الشهيد حفيد الشهيد:

ولا يمكن أن تكتمل أيا من حكايا آل البيت دون أن نذكره ونذكر حكايته فهو الإمام زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم، وقد ولد فى عام ٨٠ هجرية، وحاول أن يجعل من نفسه صورة أخرى من جده الحسين. فقد كان يعيش بالمدينة المنورة مثله وأراد أن يثور على حكام بنى أمية وألا يعطيهم موافقة الأستتبات فى الحكم مثل جده، فما كان من الخليفة هشام بن عبد الملك إلا أن أرسل إليه قوة أفشلت كل جهده وجهد بعض أهل الكوفة الذين ساندوه، وان كان معظم أهل الكوفة كانت سيرتهم معه كسيرتهم مع جده الحسين وجده على بن أبى طالب فعاش أحداثا هى صورة متكررة من كربلاء، حيث قطعوا رأسه وأرسلوها إلى دمشق ويقال ان الرأس قد قدمت إلى مصر أيضا.

والغريب أن الزائر لمقام زيد بن على زين العابدين والذى إليه ينسب الزيديين بالشيعة والذى نادى بإعمال العقل وإعطائه المساحة التى يستخدمها كما أراد الله تعالى، يجد عند المقام عمامتان احداهما تشير إلى الإمام على زين العابدين والأخرى تشير إلى زيد ابنه.

ويوجد مسجد سيدنا زيد بحى زين العابدين فى منطقة تقع إلى الشمال الشرقى من مدينة الفسطاط ويعود المسجد إلى أوائل القرن التاسع عشر حيث أن البناء الفاطمى للمسجد والمقبرة لم يتبقى منه إلا لوحة على مدخل المسجد القديم واما تاريخ القبة فانه يعود إلى العصر المملوكى.

*الموحدة بالله:

هى بالطبع ليست الموحدة الوحيدة بالله.. ولكنها السيدة عائشة ابنة جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين، وقد هبطت أرض مصر فى عهد الخليفة العباس أبوجعفر المنصور كشأن معظم آل البيت

الذين جاءوا إلى مصر، ولكن أكثر ما يحفظ عنها ويجعلنا نعتبرها من الموحدين المخلصين قولها: «وعزتك وجلالك... لئن أدخلتنى النار لأخذت توحيدى بيدى وأطوف به على أهل النار وأقول: وحدته فعذبنى!». (٢)

فكانت الموحدة بالله واثقة به تربط قلبها بكل حرف جاء فى كتابه تبارك وتعالى، والمعروف أنها قبضت فى سنوات الشباب الأولى فلم تكن قد أتمت العشرين حتى لقيت وجه ربها الكريم ودفنت بالدار التى تقيم بها فى الطريق إلى جبل المقطم ناحية القلعة. وقد راعى الفاطميون والأيوبيون مكانة عائشة حتى أن صلاح الدين الأيوبى عندما أحاط الفسطاط والعسكر والقطائع والقاهرة بسور ضخم فانه فتح فى السور بابا يسمى باب عائشة.

وقد كتب على باب القبة:

لعائشة نور مضئ وبهجة وقبتها فيها الدعاء يجاب

*عاتكة واكثر من شهادة:

وأما أشهر مشاهد آل البيت فى حى الخليفة فهما مشهدا محمد الجعفرى وعاتكة التي يقال انها كانت عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وان كانت فى الحقيقة امرأة جميلة تزوجها عبد الله بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهما إلا أنه اصيب بسهم ومات فى حصار الطائف فتزوجها من بعده عمر بن الخطاب رضى الله عنه ولكنه قتل على يدى أبو لؤلؤة المجوسى. فأراد أن يتزوجها الزبير بن العوام الذى مات هو الآخرفى موقعة الجمل حتى تزوجت أخيرا محمد بن ابى بكر والذى قتل بمصر حتى صار كل الأزواج شهداء وأصبحت الشهادة طريق كل من يتزوج بعاتكة حتى انها رفضت طلب على بن ابى طالب بالزواج..

والغـريب فى قصـة عـاتكة ان كـتب التـاريـخ لم تكتف بهـؤلاء فقـد ذكر كتـاب الاستـيعـاب لابن عبد البر أنهـا تزوجت بالفعل الحسن بن على وذكر كتاب الأغانى أن آخر الأزواج كان سيدنا الحسين رضى الله عنه.

والغـريب أيضـا أن تكون للسـيدة عـاتكة بن شـرحبيل هذه القصـة التى تعتبر من النوادر فى عمرها الذى فى حقيقته يبدو مهما طال قصيرا.

أما على الجعفرى، فليس له كما يشير أحمد ابو كف فى كتابة آل بيت النبى فى مصر ترجمة واضحة وان كان ينتسب للامام جعفر الصادق وأما الدكتورة سعاد ماهر فتعتقد انه مشهد محمد الجعفرى لا على الجعفرى وهو المعروف بمحمد الديباج بن جعفر الصادق وهو الامام جعفر الصادق الذى اشار اليه الكاتب عبد الرحمن الشرقاوى فى كتابة « أئمة الفقة التسعة » إلى ان جده لأمه هو أبو بكر وجده لابيه هو الإمام على بن ابى طالب وهو نسب لم يجتمع لأحد غيره.

وقد اعتمد محمد فى حياته مبدأ عدم رفع الصوت بالعداء وهو ماعرف بمبدأ التقية وقد بنى مشهده قبل مشهد عاتكة المجاور وأن المشهدين لهما مكانهما المميز في شارع الأشراف الذى يجعل الكثيرين يتساءلون عن أصحاب هذه المشاهد.. وعن تاريخها الذى كان..

وان كانت فى النهاية السيدات عاتكة وفاطمة ورقية وغيرهم من رجال آل البيت لم يكونوا فى حقيقتهم مجرد قصص منفردة تقف وحيدة.. فهى قصص تحكى كطرقات على أبواب أرض المحروسة وتحكى باعتبارها قصصا شارك فيها المصريون.

الفصل الثانى عشر

السيدة زينب: الله لن يخذلنا أبدا

وتمضى الأيام وتتدافع الساعات.. فهكذا الحياة تبدو أيامها الجميلة قصيرة وخفيفة على الروح، فى حين تبدو أيام أخرى بطيئة الخطو فيود الناس لو أنها تنتهى حتى لو كانت تحسب من أيام أعمارهم.

وقبل أن تنتهى رحلتى القصيرة مع أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مصر أسأل من يقرأ سؤالا يفرض نفسه وهو عن المعجزة التى قيضها الله تعالى للإنسان، فما السر وراء هذا المخلوق الذى كرمه الله تعالى وجعله سيد المخلوقات؟!! ربما كانت الإجابة صعبة ولكنى أعتقد أنها إرادة الإنسان العارف بربه ودينه، فهذه الإرادة هى التى تجعل أرواحنا لاتنكسر أبدا.

ورغم أن موقع هذا السؤال وهذه الإجابة يبدو للوهلة الأولى مستغربا إلا أنه بداية لابد منها عندما نتحدث عن السيدة زينب بنت الإمام على بن أبى طالب والسيدة فاطمة الزهراء وعقيلة بنى هاشم التى يأتى إليها المصريون من كل أنحاء مصر ليصلوا فى جامعها ويتبركوا بوجودها فهى السيدة الطاهرة التى كرمت مصر بوجودها على أرضها وهى صاحبة الإرادة والروح التى لاتنكسر وحب الله الذى لم يخذلها أبدا.

* حبيبة المصريين

وقبل أن نتحدث عن السيدة زينب وقدرها ومكانتها فى تاريخ الإسلام اسمحوا لى أولا أن نذهب إلى جامعها فى نفس الميدان الذى يعرف باسمها والذى يعتبر من أشهر ميادين القاهرة، وهذا الميدان له تاريخ طويل حيث كان فى الماضى يسمى بمنطقة قنطرة السباع وتقول عنها د. سعاد ماهر إن هذه القنطرة كانت مقامة على الخليج الذى كان يخرج من النيل عند فم الخليج وينتهى عند السويس، وإنها قد انشئت فى عهد الظاهر بيبرس وأنه

فى نهاية القرن التاسع عشر تم ردم الجزء الأوسط من الخليج وتوسيع الميدان وهو الشيء الذى كشف عن واجهة جامع السيدة زينب الذى كان قد جدده الوالى العثمانى على باشا فى منتصف القرن السادس عشر وأعاد تجديده الأمير عبدالرحمن كتخدا فى نهاية القرن الثامن عشر، وباكتشاف واجهة جامع السيدة زينب تغيرت ملامح الحى الذى أصبح يسكنه المصريون أبناء الطبقة الوسطى، وقد أقامت وزارة الأوقاف فى عام ١٩٤٠ المسجد الموجود حاليا والذى يتكون من سبعة أروقة موازية للقبلة يتوسطها صحن مربع مغطى بقبة.

ويقال إن محمد على باشا الكبير وكثير من أبناء الأسرة العلوية لم يكونوا ليتركوا هذا المسجد الذى أصبح رمزا للمصريين فوسعوا وأصلحوا وأعادوا بناءه مثل عباس وسعيد باشا والخديو توفيق والملك فاروق (١).

فقد كانوا يعشقون المكان كأى مسلم محب لأهل البيت وهو الأمر الذى تكرر فى عهد الثورة، عندما أضافت وزارة الأوقاف عام ١٩٦٩ مساحة أخرى مماثلة للمسجد الأصلى، وأما عمليات الترميم والتطوير والتوسيع الأخيرة فهى تعد آخر لمسات الجمال للمسجد العريق وهى التى وصلت به من أربعة الآف وخمسمائة متر إلى مايقرب من الثمانية آلاف متر.. فبارك الله لمصر والمصريين.

* أحب البنات

ومرة أخرى أتوقف قليلا قبل أن أتحدث عن السيدة الطاهرة التى أعتبرها المصريون سيدتهم وأمهم وأختهم فأحبوها وتعلقوا بها، فالسيدة زينب وقبل أن تأتى إلى الحياة، هى بنت أسرة طاهرة فهى ابنة الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه والسيدة فاطمة الزهراء ابنة الرسول صلى الله عليه وسلم،

ولأن البنت سر أمها فزينب بنت فاطمة رابعة بنات الرسول صلى الله عليه وسلم وهى التى حكت عنها أستاذتنا د. بنت الشاطىء فى كتابها القيم «بنات النبى عليه الصلاة والسلام» - والذى أعود إليه كثيرا عندما أحكى عن السيدة زينب والإمام الحسين - بأنها كانت الأقرب إلى قلب أبيها أو لم يقل يوما عن السارق ولو كانت بنت محمد فاطمة لقطعت يدها فلم يقل الرسول: لو كانت بنت محمد على الإطلاق والتعميم بل ذكر فاطمة وهى من عرفت قريش مكانتها الآثيرة عند أبيها الرسول، ولقد سمع صلى الله عليه وسلم يقول: خير نساء العالمين أربع: مريم وآسيا وخديجة وفاطمة.

فقد كان حظ الزهراء من حب أبيها صلى الله عليه وسلم قد ازداد بعد موت أخواتها ثم تضاعف بمولد الحسنين وانحسار ذريته صلى الله عليه وسلم فى نسل هذه الابنة الوحيدة التى بقيت له، وهى التى استقبلت الحياة كما ظنت أمها خديجة رضى الله عنها فى مستهل الصبا حافلة بالمتاعب منذرة بمزيد من المحن والآلام (٢).

وقد وضعت فاطمة ابنتها زينب فى العام الخامس من الهجرة وقد أسمتها زينب تيمنا بخالتها زينب التى توفيت فى السنة الثانية للهجرة متأثرة بجراحها حيث حاول قتلها أحد المشركين بعد غزوة بدر، إلا أن زينب الصغيرة لم تنعم كثيرا - كما حدث لأمها - بحياة الطفولة، فسرعان مايرحل جدها الرسول صلى الله عليه وسلم لتلحق به أمها فاطمة بعد ستة أشهر.

ونحسب أن مأساة الفراق قد بدأت عندما أسر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ابنته فاطمة بأنه حسب أنه حان أجله، فلما بكت قال: وإنك أول أهل بيتى لحوقا بى، ألا ترضى أن تكونى سيدة نساء هذه الأمة؟.

وهكذا ترحل الأم لتترك للطفلة عملا ثقيلا لاتقدر عليه وهو رعاية أختها

أم كلثوم وأخويها الحسن والحسين، وهى المهمة التى تحتاج إرادة العارف بربه فما بالنا بطفلة صغيرة.

وتمضى الأيام وتصبح الطفلة زينب فتاة جميلة ووجهها كأنه قمر كما وصفها معاصروها، فيزوجها والدها على بن أبى طالب من ابن عمها عبدالله بن جعفر والذى قد لقب بقطب السخاء لكرمه ونبله، وتنجب له ثلاثة بنين وهم جعفر وعلى وعون وابنتين هما أم كلثوم وأم عبدالله، ولايتوقع أحد لزينب حظا فى هذه الحياة أكثر من قيامها بدور الأم لأخوتها وأولادها لكن تدافع الأحداث السياسية فى حياة والدها الامام على وأخويها الحسن والحسين يضعان على عاتق زينب مهاما أخرى جديدة لم تعرفها امرأة من قبل.

* القصة لم تكتمل

أما المهمة الجديدة فهى التى صنعتها ماشهدته السيدة زينب من جهاد أبيها فى موقعه الجمل ثم صفين ثم قتاله للخوارج حتى قضى الله أمره فمات والدها على بن أبى طالب ثم من بعده أخوها الحسن حتى إذا دارت الأيام دورتها على أخيها الامام الحسين رضى الله عنه ظهرت زينب أخرى تختلف كثيرا عن تلك المرأة الوديعة التى تلتزم جدران بيتها، فقد كتب الله دورا لزينب أطاح بأحلام بنى أمية فى قبول الناس لجرمهم فى حق إمامنا الحسين.

فالسيدة زينب رضى الله عنها وأرضاها لم تكن أقل حكمة ولاقدرا من أخويها، فقد سمعت نفس النصيحة التى نصحها الإمام على ولديه الحسن والحسين عندما طالته ضربة غادرة فكما قال لهما: أوصيكما بتقوى الله، ولاتبغيا فى الدنيا وإن بغتكما، ولا تأسفا على شىء منها زوى عنكما،

أفعلا بخير، وكونا للظالم خصما وللمظلوم عونا [٣].

فقد أراد الوالد لولديه الحسن والحسين أن يكونا للظالم خصما وهو ماحدث وأودى بحياة الحسين رضى الله عنه فى كربلاء ومن قبل بحياة الحسن فى المدينة المنورة. وقد أراد الله تعالى أن تكون السيدة زينب هى من يعلم الناس درسا فى عون المظلوم وخصام الظالم.

فعندما أسرت السيدة زينب بعدما مات أخوها وأولاده ورأتهم بعينيها وهم أشلاء بعد أن كانوا أجسادا كاملة وأرواحا كانت تأنس لها، قالت للناس: هذا الحسين بالعراء مرمل بالدماء.. مقطع الأعضاء. يامحمداه هذه بناتك سبايا وذريتك مقتلة تسفى عليها.

والتفتت إلى أهل الكوفة وهى ترفع عنهم بعباراتها أقنعة الدموع التى قد غرقوا فيها فتقول: أتبكون فلاسكتت العبرة ولاهدأت الرنة، انما مثلكم مثل التى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا، فأبكوا كثيرا وأضحكوا قليلا، فقد ذهبتم بعارها وشنارها وكيف ترخصون قتل سبط الرسول وهو سيد شباب أهل الجنة، أتدرون أى كبد فريتم وأى دم سفكتم وأى كريمة أبرزتم. لقد جئتم شيئا إدًا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا (٤).

وعندما يصل موكب السبايا إلى مجلس ابن زياد تجلس السيدة الكريمة قبل أن يؤذن لها. ويدور حوار أوردته معظم كتب التاريخ والأدب لما له من قوة وإرادة العارفة بربها السيدة زينب الطاهرة، وكما ورد فى كتاب «أبناء الرسول فى كربلاء» و«أهل بيت النبى» لعبدالحميد جودة السحار ومن قبلهما فى كتب السيرة الجليلة لأهل البيت سأل ابن زياد: من هذه؟ فلم تجبه، وكرر السؤال مرتين وثلاثا حتى أجابت إحدى امائها: هذه زينب ابنة

فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم..

فقال ابن زياد: الحمد لله الذى فضحكم وقتلكم.

فقالت: بل الحمد لله الذى أكرمنا بنبيه وطهرنا من الرجس تطهيرا وإنما يفضح الله الفاسق ويكذب الفاجر وهو غيرنا و الحمد لله.

فقال: كيف رأيت صنع الله بأهل بيتك؟ فقالت: كتب عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاجون إليه تخاصمون عنده يوم القيامة.

فقال: قد شفى الله نفسى من طاغيتك والعصاة المردة من أهل بيتك..، فبكت ثم قالت: لعمرى لقد قتلت كهلى وأبرت أهلى وقطعت فرعى واجتثثت أصلها فإن يشفك هذا فقد أشتفيت.

فقال: هذه سجاعة قد لعمرى كان أبوك شاعرا سجاعًا، فردت عليه: ما للمرأة للشجاعة، إن لى من الشجاعة لشغلا ولكن نفثى ماأقول.

فغار على زين العابدين على عمته فقال: ياابن زياد كم تهتك عمتى وتعرضها لمن لايعرفها؟.

فيغضب عليه بن زياد ويأمر بقتله فتتعلق به عمته السيدة زينب وهى تقول: يا ابن زياد حسبك منا، أما رويت من دمائنا، وهل أبقيت منا أحدا، أسألك بالله إن كنت مؤمنا ان قتلته لما قتلتنى معه. فقال ابن زياد: عجبا للرحم والله إنى لا أظنها ودت لو أنى قتلتها معه، دعوا الغلام وانطلق مع نسائك.

وتنطلق النساء وتقول السيدة زينب وهى تصيح:

ماذا تقولون إن قال النبى لكم

ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم؟

بعترتى وأهلى بعد مفتقدى

منهم أسارى ومنهم درجوا بدم (٥).

*ومصر مسك الختام

إلا أن الأسيرات لا ينطلقن إلى حال سبيلهن. فمن بعد الوالى ابن زياد يكتب عليهن الذهاب إلى دمشق حتى يقفن عند باب يزيد بن معاوية.

ويدور حديث آخر بين السيدة زينب وبين ابن معاوية بن أبى سفيان تذكره فيه بقدرها وما فعله بهم فتقول فأصبحنا نساق كما تساق الأسارى أن بنا هوانا على الله وأن بك عليه كرامة، «ولايحسبن الذين كفروا إنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين» سورة آل عمران ١٧٨ .

وينتهى الحديث وتعود السيدة زينب إلى المدينة فتمكث فترة قصيرة حيث وضح ان بنى أمية لا يريدون أن يتركوا لها حتى فرصة أن تقضى ما بقى لها من عمر بجوار الرسول صلى الله عليه وسلم. فتقرر أن ترحل وأن تترك لهم كل شئ، ولاتجد أفضل من مصر لترحل إليها ، فالمصريون الطيبون هم أصحاب أجمل عشرة وهم الذين استقبلوها منذ وطئت راحلتها أول أرض مصرية ولا يترك المصريون السيدة أم هاشم ولا أحدا من أبنائها ولاتترك أم هاشم مصر حتى ترحل عن الحياة بعد عام واحد من وصولها أرض المحروسة.

اننى اعتبر السيدة زينب هى أفضل خاتمة لهذه القصة كلها وهى أصل الحكاية فى وجود أهل البيت فى مصر، فلولا أم هاشم لما جاءت السيدة سكينة ولولا أم هاشم لما جاءت بعدها بسنوات طويلة الحفيدة نفيسة العلم

التى كان المصريون يتلمسون بركاتها، ولولا أم هاشم لما فكر الإمام الشافعى في مصر بعد طول سفر، فالسيدة التى لم تكن لتهزم روحها أبدا ولم يخذلها الله أبدا كانت فى عقلى عندما كتبت عن الحسين والسيدة نفيسة والشقيقين سكينة وعلى والإمام الشافعى.

الخاتمة

وتمضى السطور والأوراق... ولا نفى آل البيت حقهم، فمازال هناك الكثير من المساجد والأضرحة التى تنتشر فى بر مصر، ولكننا أردنا فقط أن نلقى نظرة من هذه النافذة وإن كان المشهد أعمق من أن تستوعبه أعيننا.

فهناك أكثر من مائة أثر لآل البيت فى جميع أنحاء مصر، ولكننا ننظر إلى الأمر بعيون أخرى فهؤلاء بوجودهم على مر العصور يثبتون أشياء كثيرة فى صالح البلاد.

إلا أن أكثر ما يثبتونه هو هذا الوفاء المصرى للدين والتدين فقد نشأ المصرى متدينا بل وموحدا وكانت مصر أرض الأنبياء وأصبحت أرض الأمان بما تملكه من زرع وفكر ريفى خالص وحتى الصحراء لم تكن لتمنحها إلا الحكمة.

ولهذا أعتقد أننا عندما نقرأ بعضا من سيرة آل البيت، فهذا لا يعنى أننا نكتفى بدراسة أثرية أو أننا نتذكر الجوانب الدينية فقط فهناك شئ ثالث نريد أن نضيفه وهو مبدأ الحضارة

فمنذ فترة ومصر تشغلنى... وأعتقد أننى عندما أقول منذ فترة أكون قد

أخطأت التعبير، فهى موجودة معى بحكم مولدى ولكنها بالفعل ومن الناحية الثقافية والحضارية تعد لغزا، فهى حاوية للحضارة فى أى عصر، وهى تتعامل بمفردات خاصة مع كل حدث فتضيف له الصبغة المصرية.

وأما الغريب فى الأمر فهو أن المصريين ينجحون دائما ويرتفع صوتهم عندما يعضوا على مصر بالنواجذ، ولكنهم عندما يتلفتون حولهم فأنهم يفقدون كل شئ، وهو ما حدث ويحدث دائما، ولهذا فلم تكن هناك بقعة فى الأرض تضيف إلى آل البيت كما يضيفون إليها إلا فى مصر التى جعلت لهم منظومة خاصة من التدين يعرفها أهل الريف وبر مصر المحروسة.

واعتبر آل البيت حلقة ثانية أكتبها عن تاريخ مصر الحضارى وإن كنت لم أستطع أن أتحراها كما أريد... ولهذا يبقى هذا الكتاب بجهده المتواضع إشارة لقدر المصريين الذى ينجحون فقط عندما يصبحون.. مصريين.

المراجع

(١) د. عبد المنعم أبوبكر، الموسوعة المصرية (تاريخ مصر القديمة وآثارها - الجزء الأول)
(القاهرة: وزارة الثقافة والإعلام - ١٩٦٠)
(٢) إريك هورنونج، ديانة مصر الفرعونية (الوحدانية والتعدد)
(القاهرة: مدبولى - ١٩٩٥)
(٣) المصدر السابق.
(٤) د. أحمد شلبى، موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية
(القاهرة: مكتبة النهضة المصرية - ١٩٧٨)
(٥) هالة زكى، «كل هذا الفن الجميل»
(الأهرام - عدد الجمعة - ٢٠٠٢/٧/٥)

(١) د. جمال عبدالهادى، د. وفاء رفعت، «نحو تأصيل إسلامى لتاريخ الأمة المسلمة.... أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ - جزيرة العرب»
(المنصورة: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ١٩٨٦)
(٢) المصدر السابق.
(٣) د. أحمد شلبى، موسوعة التاريخ والحضارة الإسلامية
(القاهرة: مكتبة النهضة المصرية - ١٩٧٨)
(٤) د. بنت الشاطئ، نساء النبى عليه الصلاة والسلام
(القاهرة: دارالهلال - ١٩٦٥)
(٥) نفس المصدر السابق.
(٦) د. عبدالصبور شاهين، مصر فى الإسلام القرن الأول

(القاهرة: دار قباء للطباعة ـ ٢٠٠٠)

(٧) نفس المصدر السابق.

(١) أبو القاسم عبدالرحمن عبدالله بن الحكم بن أعين القرشى المصرى، فتوح مصر وأخبارها . صفحات من تاريخ مصر (القاهرة: مدبولى ـ ١٩٩١)

(٢) عبد الصبور شاهين ، مصر فى الإسلام

(٣) المصدر السابق

(٤) المصدر السابق

(٥) المصدر السابق

(٦) نافتالى لويس، الحياة فى مصر فى العصر الرومانى ٣٠ ق.م ـ ٢٨٤ م

(القاهرة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ـ ١٩٩٧)

(٧)د. بنت الشاطئ، نساء النبى عليه الصلاة والسلام.

(القاهرة: دار الهلال ـ ١٩٦٠)

(٨) محمد عبدالوهاب، عمرو بن العاص

(القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٨٧)

(١) حامد سليمان، من القبطية إلى الإسلام.. قصة فتح مصر

(القاهرة: المكتب العربى للمعارف ـ ١٩٨٨)

(٢) المصدر السابق

(٣) د. حسن الباشا، القاهرة: تاريخها وفنونها وآثارها

(القاهرة: مطابع الأهرام التجارية ـ ١٩٦٩)

(٤) حامد سليمان، من القبطية إلى الإسلام

(القاهرة: المكتب العربى للمعارف ـ ١٩٨٨)

(٤) المصدر السابق

(٥) عبد الصبور شاهين ، مصر فى الإسلام

(القاهرة: دار قباء للطباعة ٢٠٠٠)

(١) عباس محمود العقاد، الحسين أبو الشهداء

(القاهرة: دار الهلال ـ ١٩٨٥)

(٢) د. بنت الشاطئ، بنات النبى عليه الصلاة والسلام.

(القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتباب ـ ١٩٩٧)

(٣) عبدالحميد جودة السحار، أهل بيت النبى

(القاهرة: دار مصر للطباعة ـ ١٩٧٦)

(٤) محمد عبد الوهاب حكم عمرو بن العاص

(القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٧)

(٥) عبد الحميد جودة السحار، أهل بيت النبى

(القاهرة: دار مصر للطباعة ـ ١٩٧٦)

(٦) محمد على قطب، رياحين بيت النبوة

(القاهرة: دارالفكر العربى ـ ٢٠٠١)

(١) د. بنت الشاطئ، نساء النبى عليه الصلاة والسلام

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٧

(٢) عبد الحميد جودة السحار، أهل بيت النبى

(٣)نفس المصدر السابق

(٤) خالد محمد خالد، أبناء الرسول فى كربلاء

(القاهرة: دار ثابت ـ ١٩٨٦)

(٥) المصدر السابق

(٦) المصدر السابق

(٧) عبد الحميد جودة السحار، أهل بيت النبى

(القاهرة: دار مصر للطباعة ـ ١٩٧٦)

(٨) المصدر السابق

(٩) عباس محمود العقاد، الحسين أبو الشهداء

(القاهرة: دار الهلال ـ ١٩٨٥)

(١) محمد عبد الوهاب، عمرو بن العاص

(القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٧)

(٢) خالد محمد خالد، أبناء الرسول فى كربلاء

(القاهرة: دار ثابت ـ ١٩٨٦)

(١) د. سعاد ماهر، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون

(القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ ١٩٧٢)

(٢) طه حسين، الفتنة الكبرى

(بيروت: المجموعة الكاملة ـ دار الكتاب اللبنانى ـ ١٩٨٢)

(٣) عبد الحميد جودة السحار، أهل بيت النبى

(القاهرة: دار مصر للطباعة ـ ١٩٧٦)

(٤)نفس المصدر السابق

(٥) د. سعاد ماهر، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون

(القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ ١٩٧٢)

(٦)نفس المصدر السابق

(٧) خالد محمد خالد، أبناء الرسول فى كربلاء

(القاهرة: دار ثابت ـ ١٩٨٦)

(٨) عبدالرحمن الشرقاوى، الحسين ثائرا وشهيدا

(القاهرة: العصر الحديث للنشر والتوزيع ـ ١٩٨٥)

(١) د. سعاد ماهر، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون

(القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ ١٩٧٢)

(٢) توفيق أبوعلم، السيدة نفيسة

(القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الأسلامية)

(٣) د. حمزة النشرتى، سيرة آل بيت النبى

(القاهرة: مكتبة النشرتى ـ ٢٠٠١)

(٤) حنفى المحلاوى، مقابر المشاهير من أهل البيت

(القاهرة: دار الشروق ـ أهل البيت فى مصر)

(٥) نفس المصدر السابق

(١) د. سعاد ماهر، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون
(القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ ١٩٧٢)
(٢) نفس المصدر السابق
(٣) عبد الحميد جودة السحار، أهل بيت النبى
(القاهرة: دار مصر للطباعة ـ ١٩٧٦)
(٤) سيد هادى خروشاهى، أهل البيت فى مصر
(القاهرة: مكتبة الشروق الدولية ـ ٢٠٠٤)
(٥) عبد الحميد جودة السحار، أهل بيت النبى
(القاهرة: دار مصر للطباعة ـ ١٩٧٦)
(٦) حسين مجيب المصرى، الصحابى الجليل سلمان الفارسى عند العرب والفرس والترك
(القاهرة: الدار الثقافية للنشر ـ ١٩٩٩)
(٧) د. عبدالرحمن بدوى، سيرة حياتى
(بيروت: المؤسسة العربية للنشر والتوزيع ـ ٢٠٠٠)
(٨) محمد على قطب ، رياض بيت النبوة
(القاهرة: دارالفكر العربى ـ ٢٠٠١)

(١) د. سيد عويس، رسائل الامام الشافعى (الأعمال الكاملة)
(القاهرة: مركز المحروسة للبحوث ـ ١٩٩٨)
(٢) د. سعاد ماهر، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون

(٣) نفس المصدر السابق

(٤) نفس المصدر السابق

(١) حنفى المحلاوى، مقابر المشاهير من أهل البيت

(٢)سيد هادى خسروشاهى، أهل البيت فى مصر

(٣) نفس المصدر السابق

(١) د. سعاد ماهر، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون

(القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ ١٩٧٢)

(٢) د. بنت الشاطئ، نساء النبى عليه الصلاة والسلام

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٧

(٣) مصطفى كمال أحمد، آل البيت

(بلبيس: دار المصرى ـ ٢٠٠٠)

(٤) عبد الحميد جودة السحار، أهل بيت النبى

(القاهرة: دار مصر للطباعة ـ ١٩٧٦)

(٥) نفس المصدر السابق

(٦) على أحمد شلبى، أبنة الزهراء بطلة العزاء زينب رضى الله عنها

(القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ ٢٠٠٢)

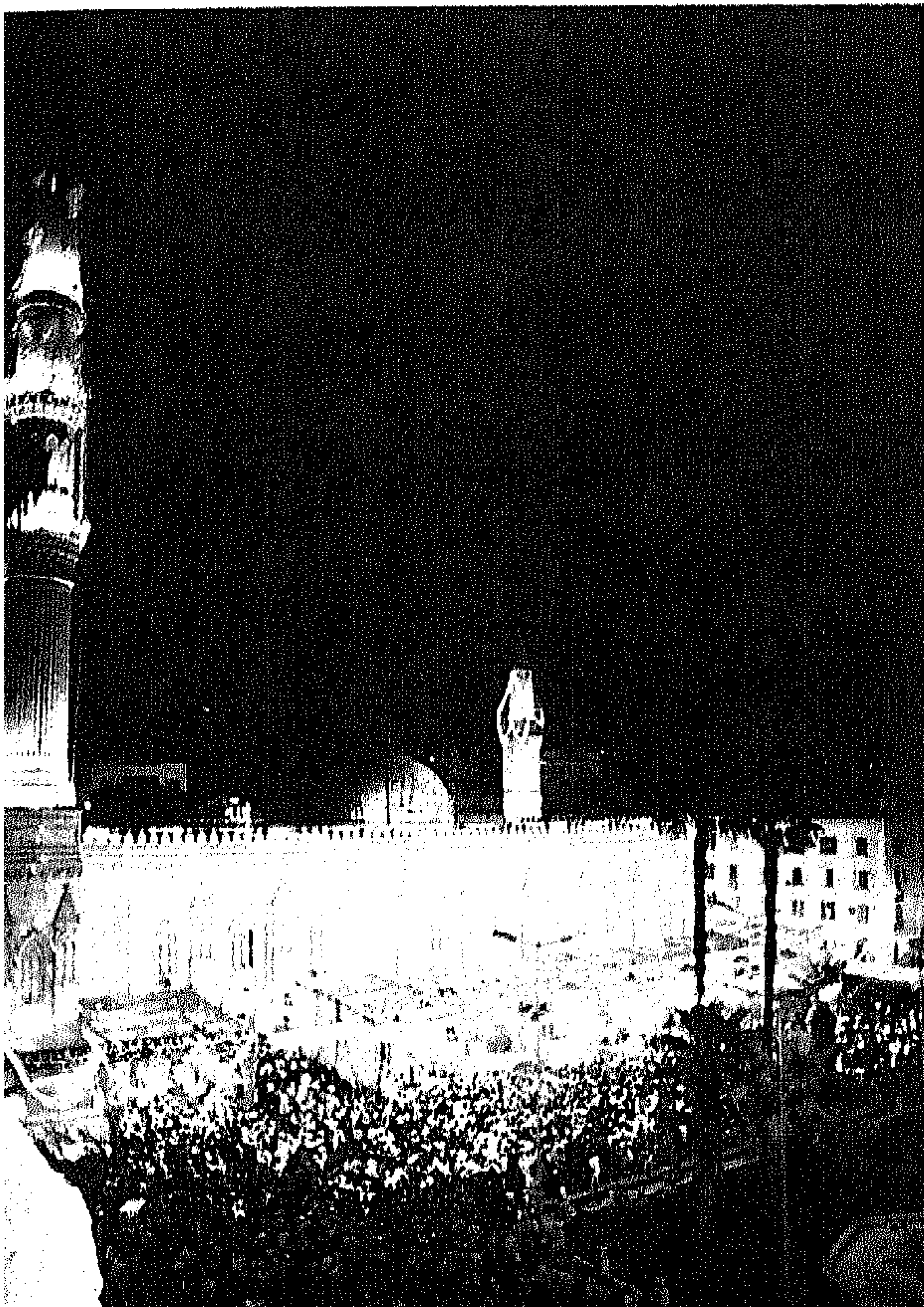
ملحق الصور

المشهد الحسينى من الخارج ويبدو آلاف المصريين وقد توافدوا إليه فى شهر رمضان المبارك

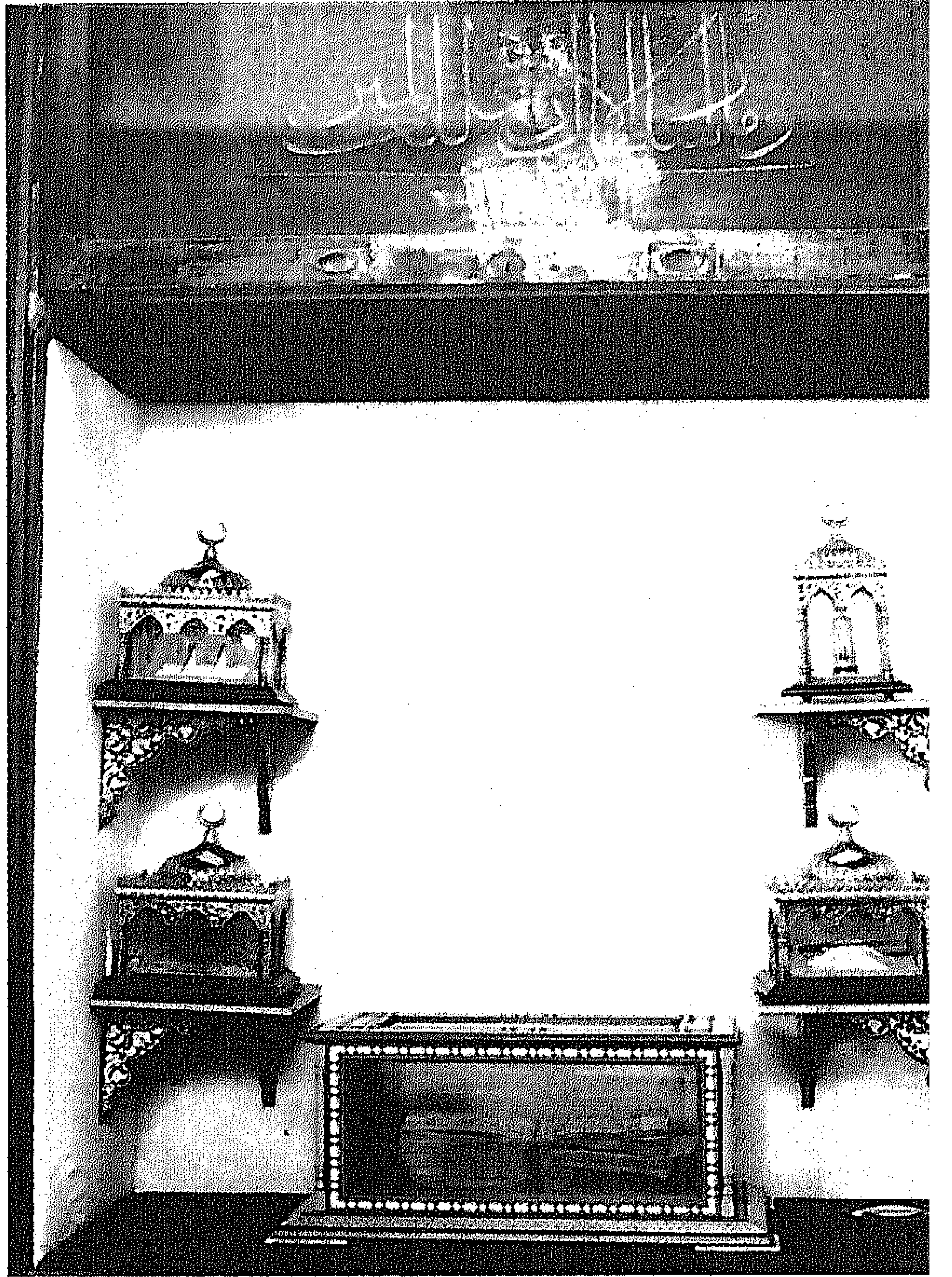
فى العشر الأواخر من شهر رمضان ويظهر الآلاف داخل مسجد الإمام الحسين



ضريح الإمام الحسين من الداخل



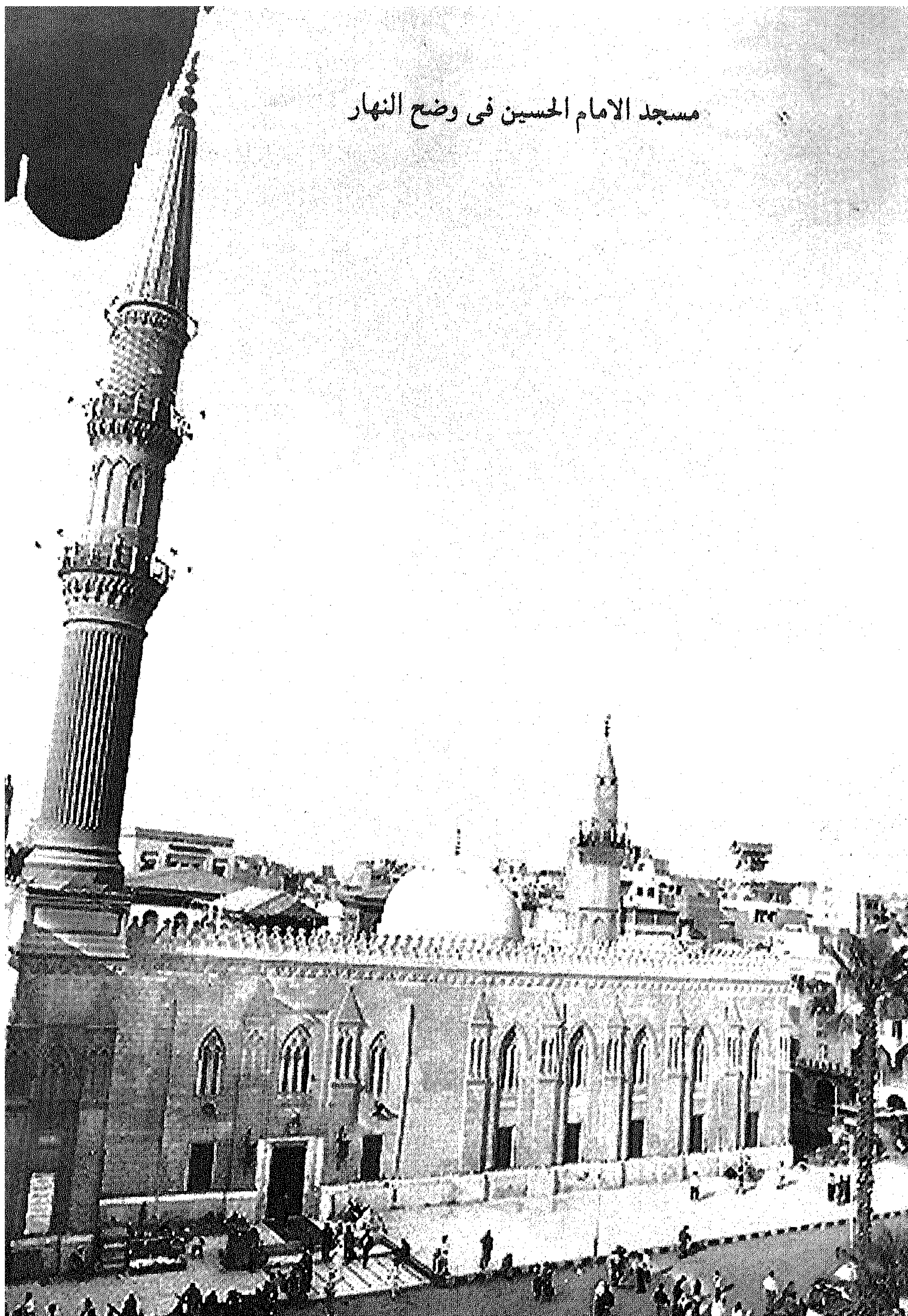
صورة من بعيد
لمسجد الإمام الحسين ليلاً

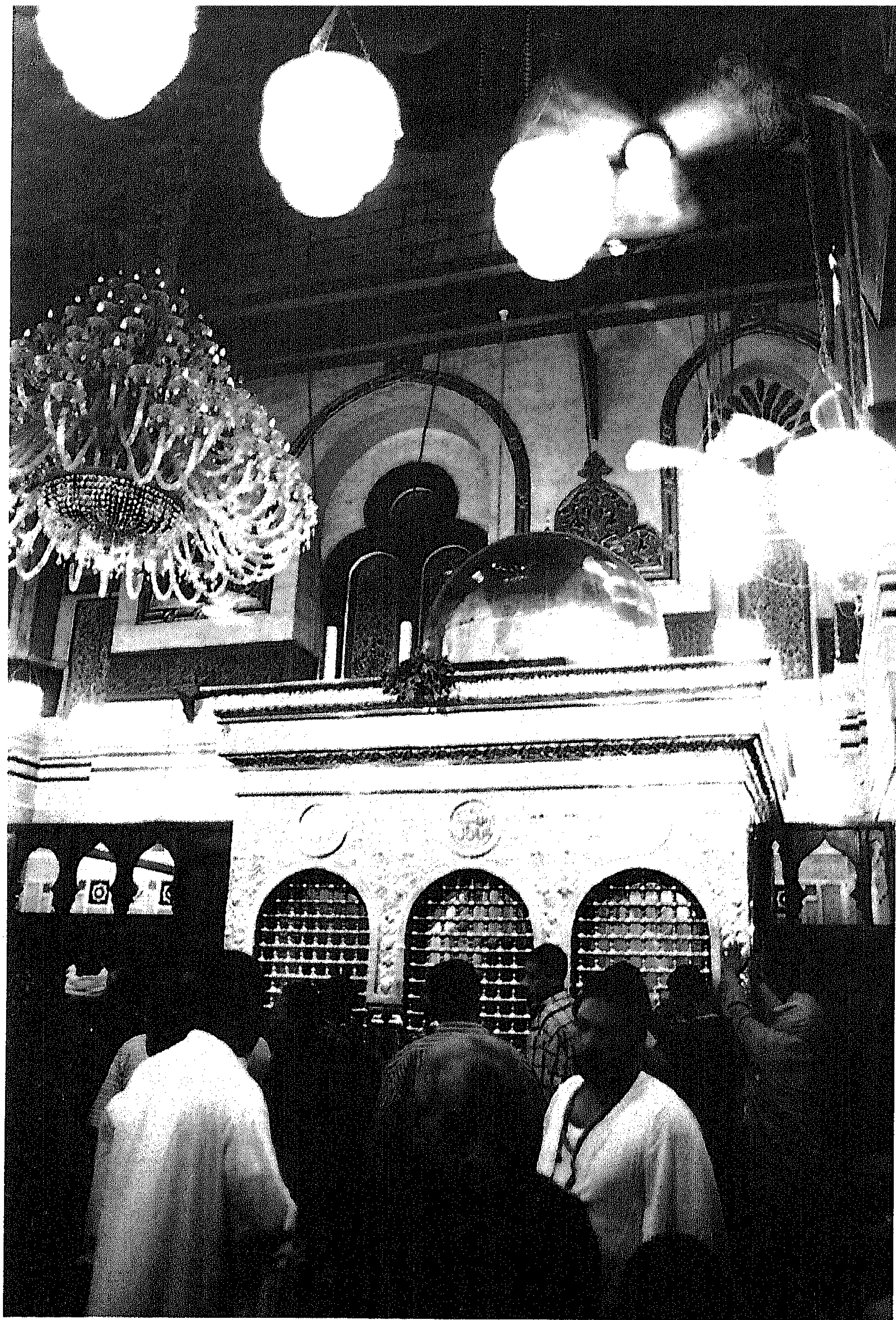


بعض مقتنيات الرسول ﷺ داخل دولاب خاص بغرفة المقتنيات

غرفة المقتنيات الخاصة داخل مسجد الإمام الحسين وتضم آثار الرسول ﷺ وبعض أصحابه

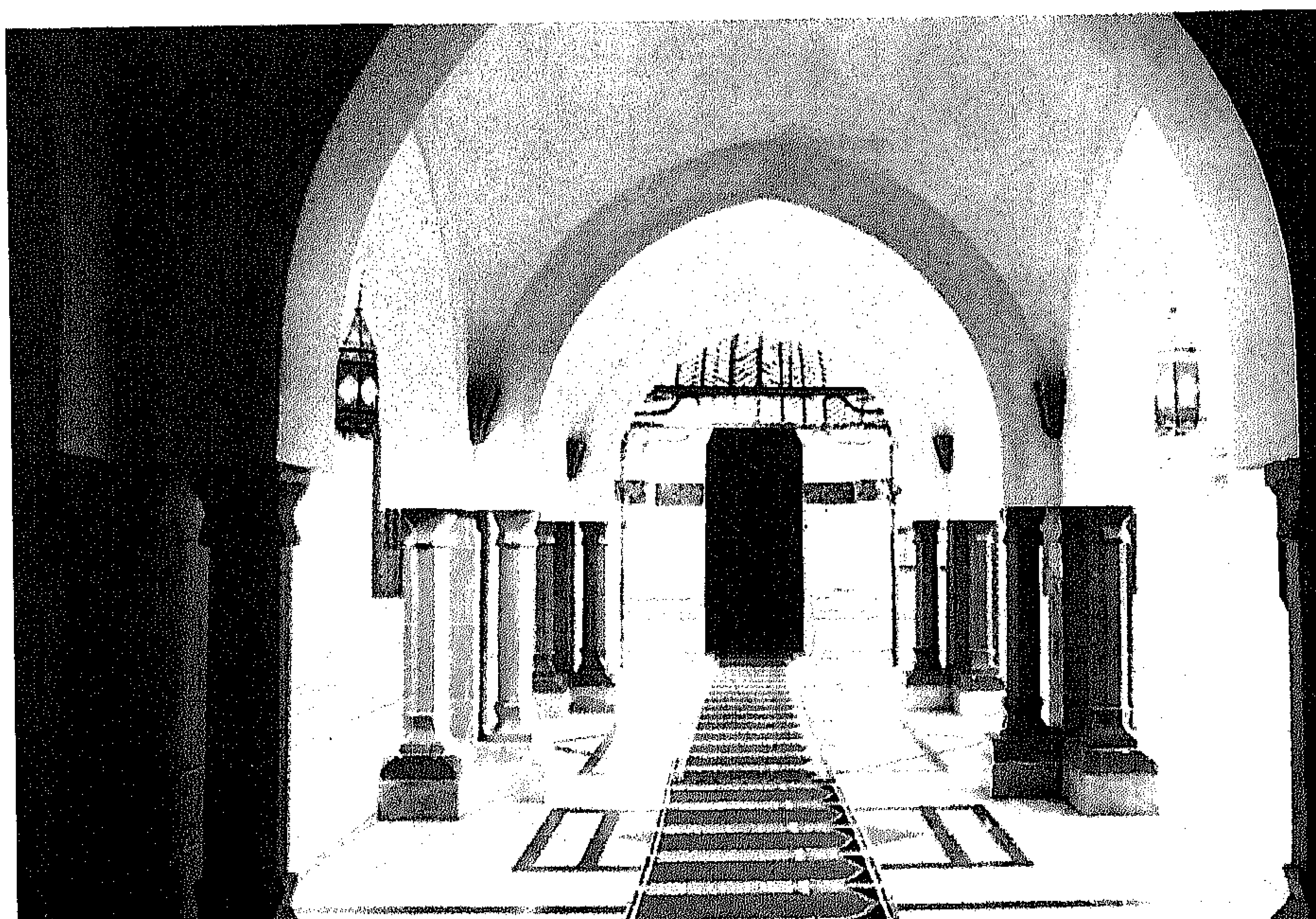



مسجد الامام الحسين فى وضح النهار



ضريح السيدة زينب من الداخل

مسجد السيدة نفيسة من الداخل





مسجد السيدة زينب فى ليل رمضان



مسجد السيدة زينب من بعيد

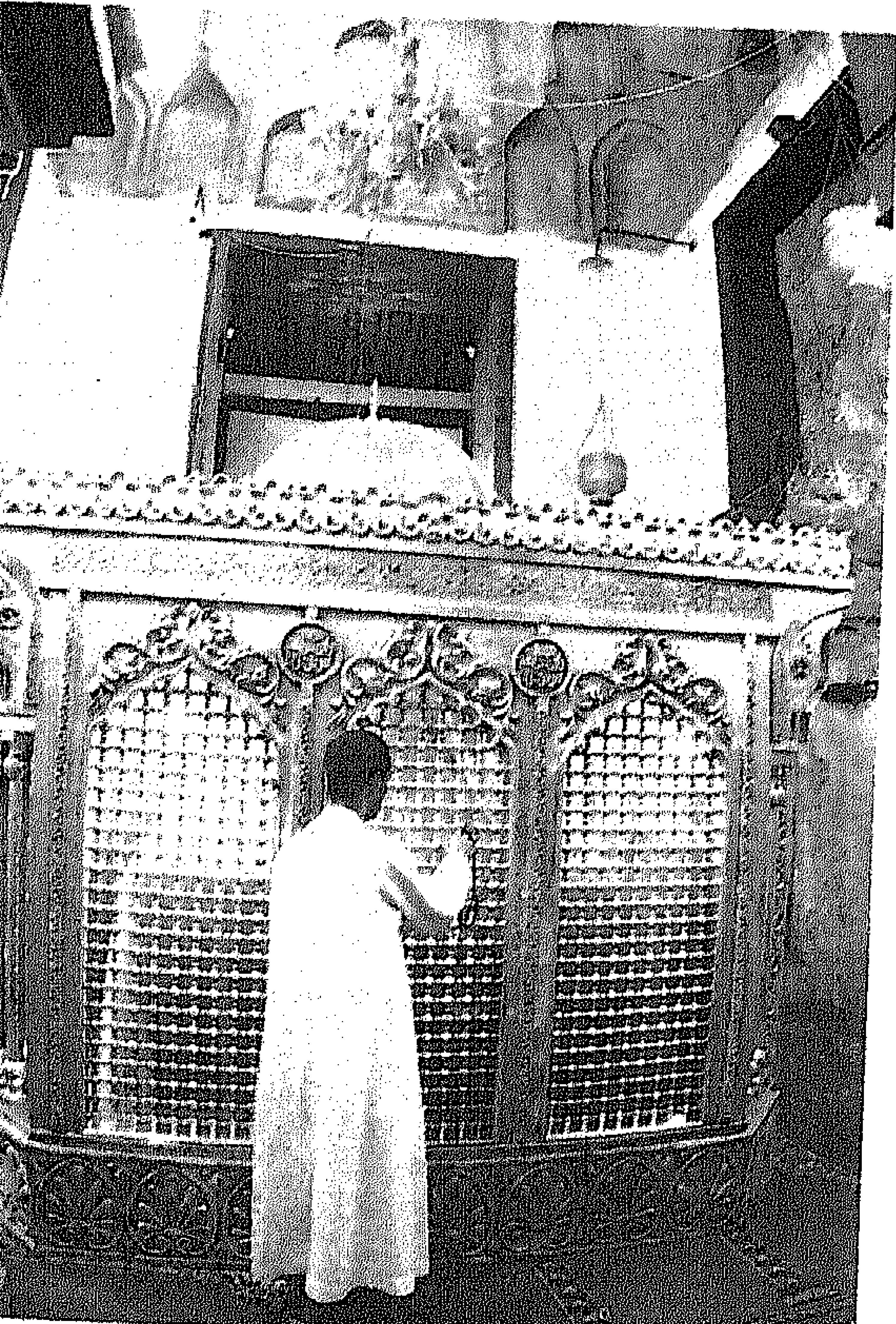


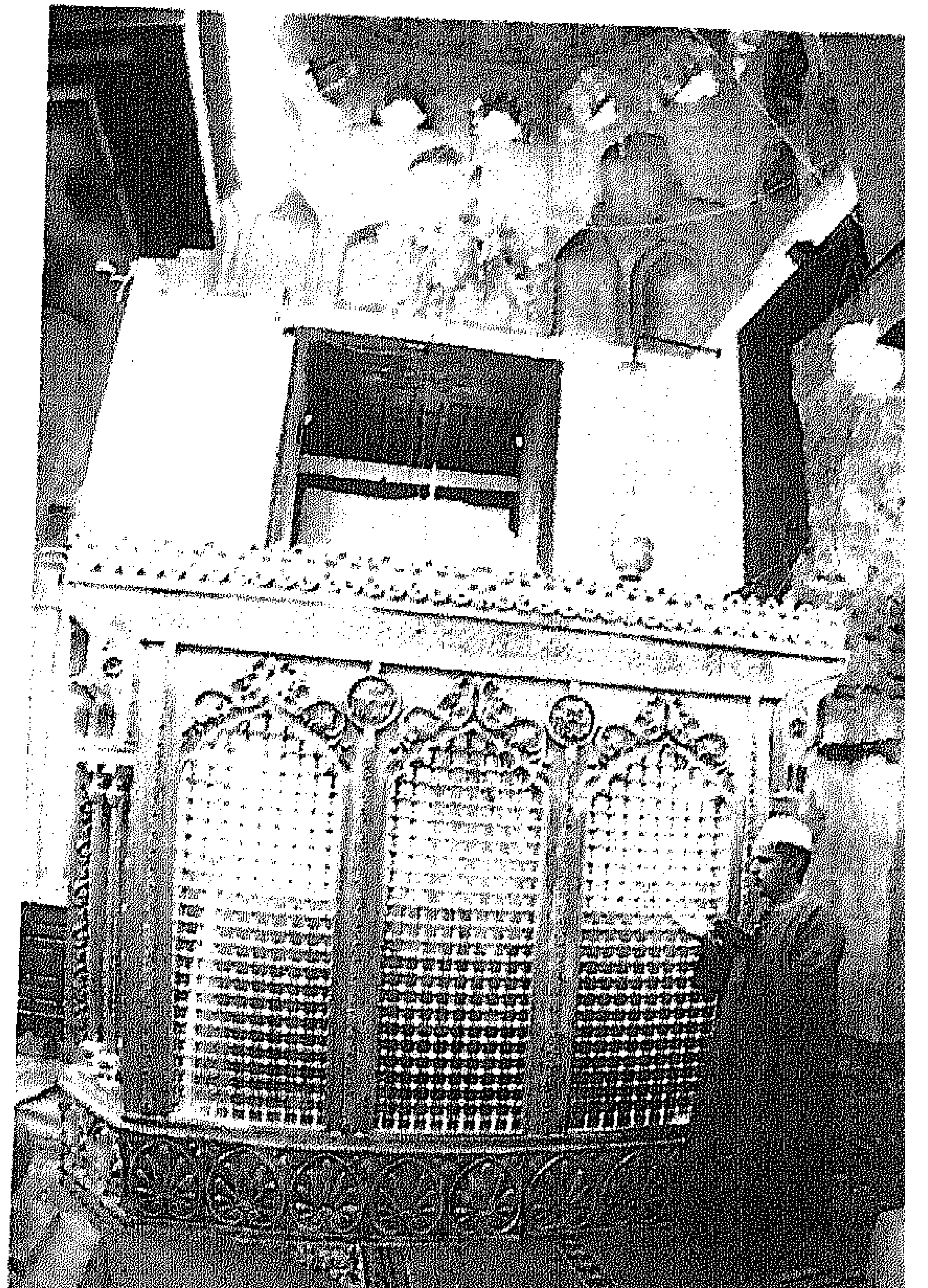
سيدة توقد شمعة تبركاً فى مسجد السيدة زينب



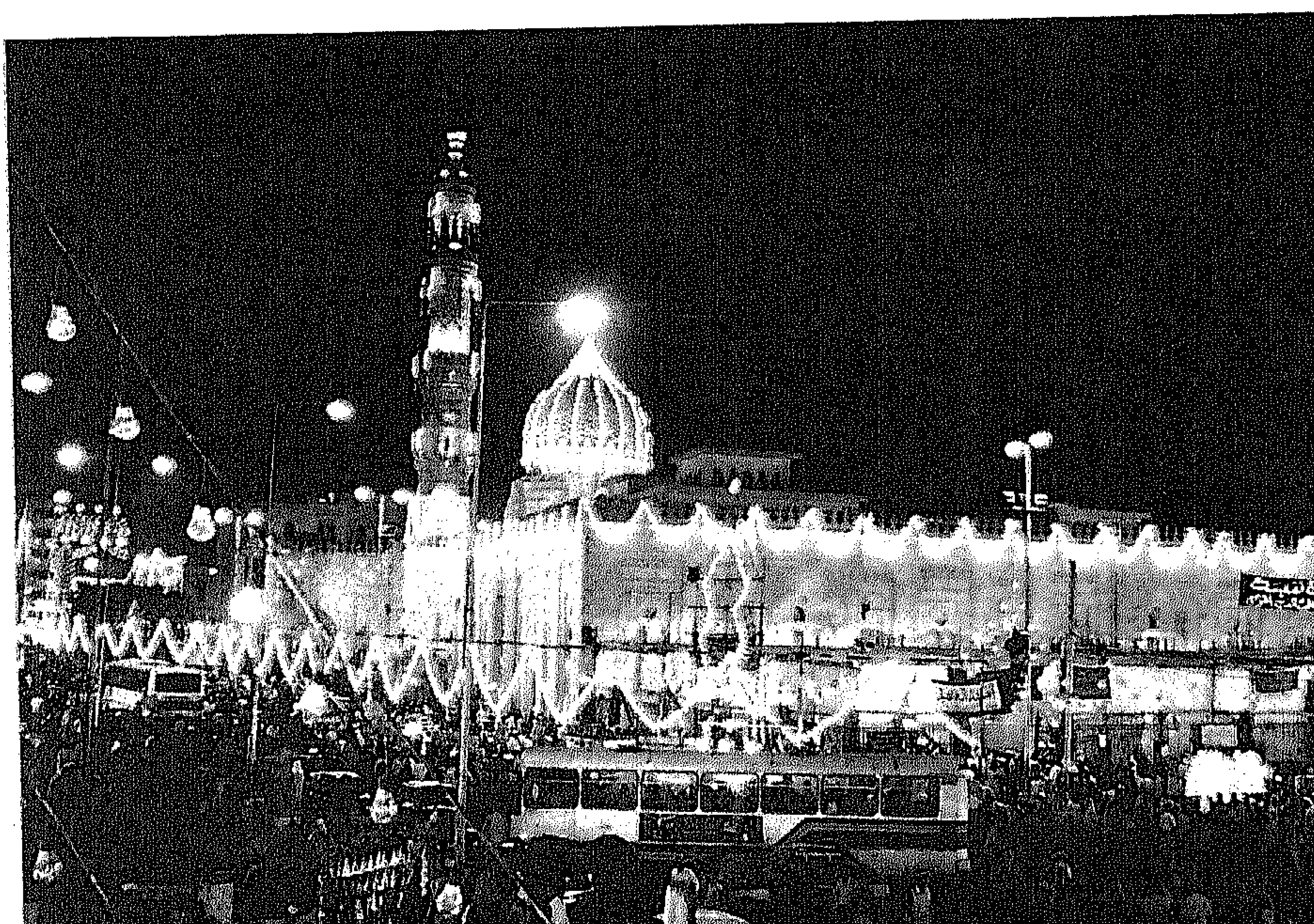
ضريح السيدة رقية رضى الله عنها وتظهر مقصورة

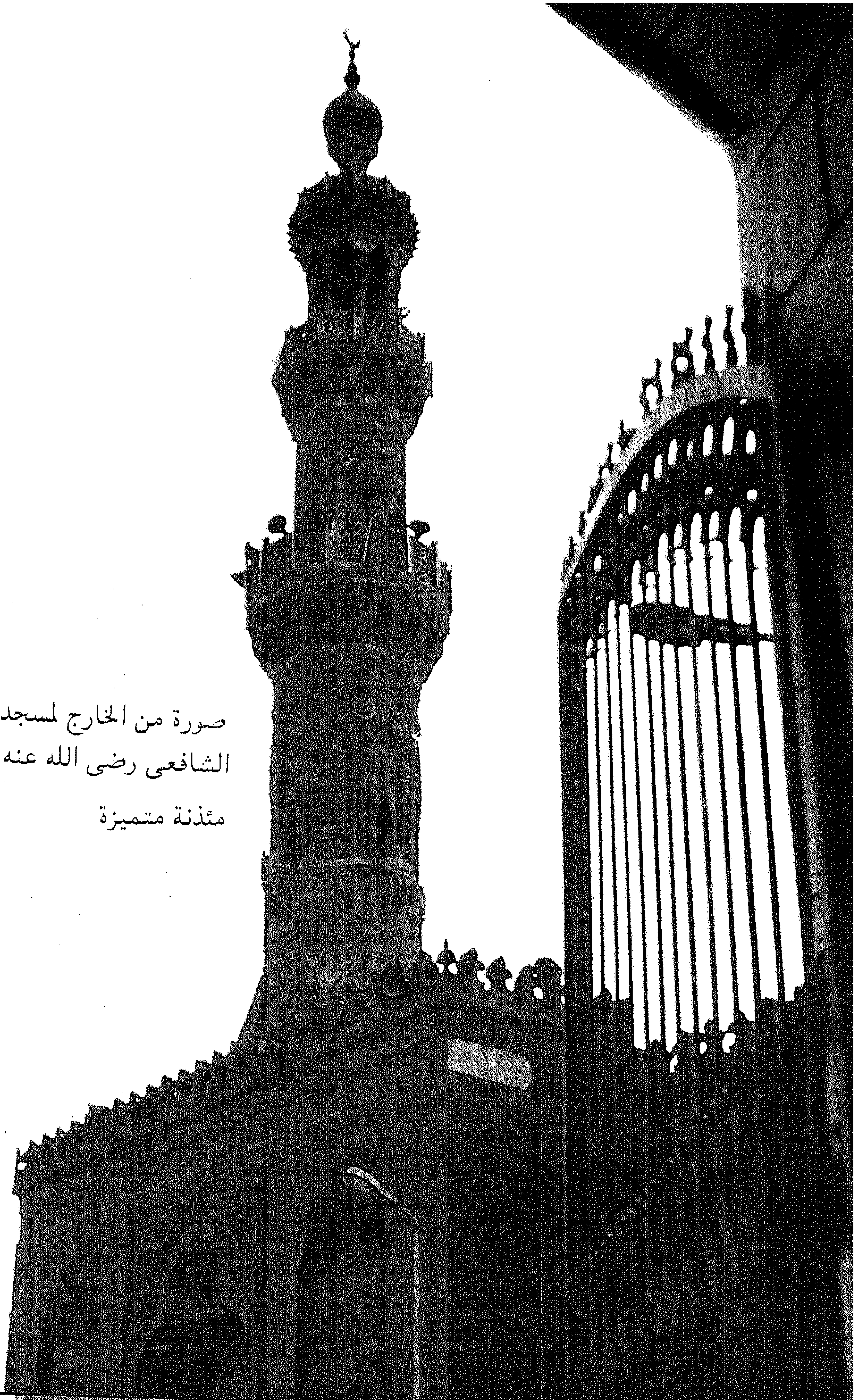
من أجمل مقصورات آل البيت وهى موجودة فى حى الخليفة



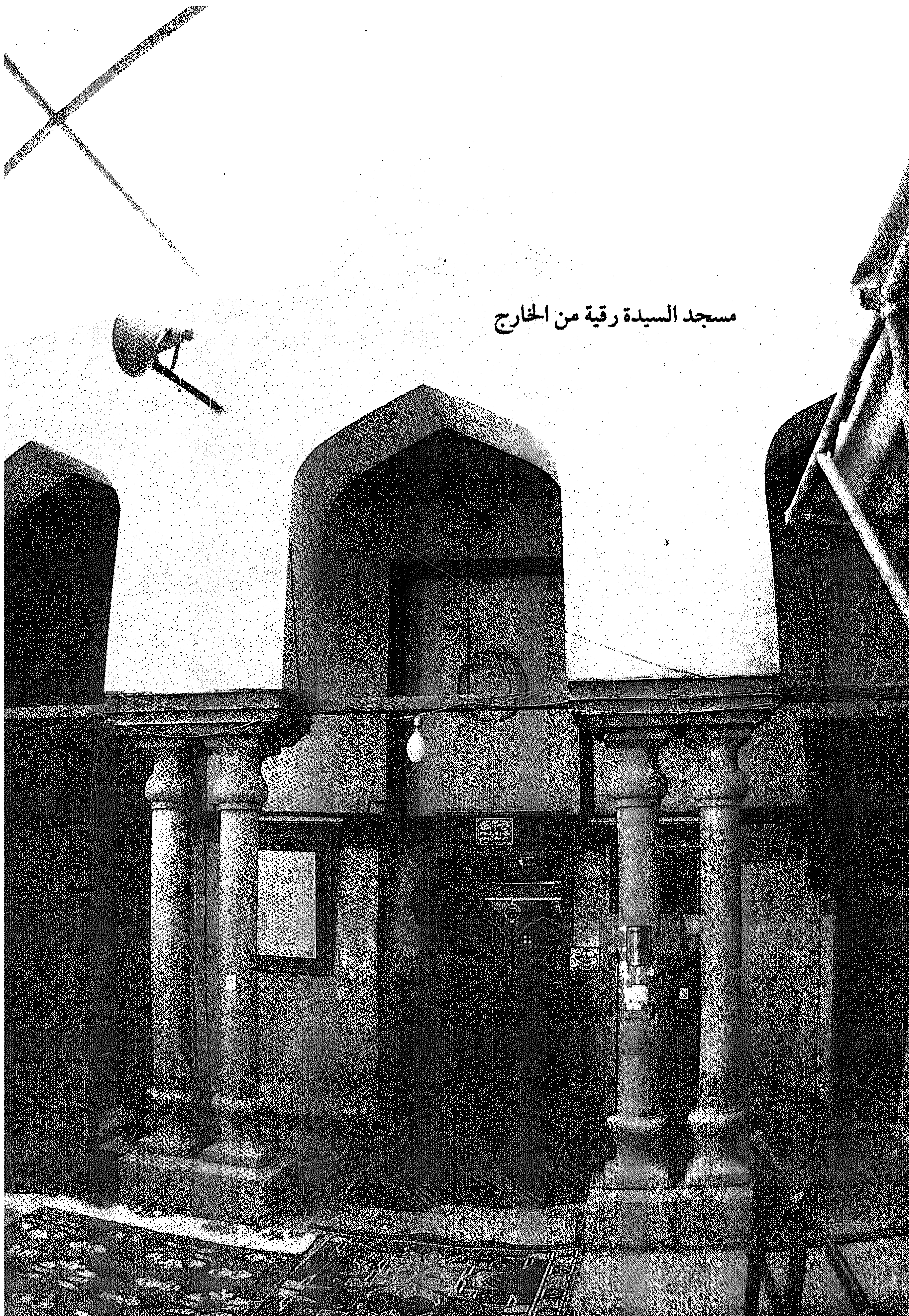


مسجد السيدة زينب .. هكذا يبدو بنيانه من بعيد

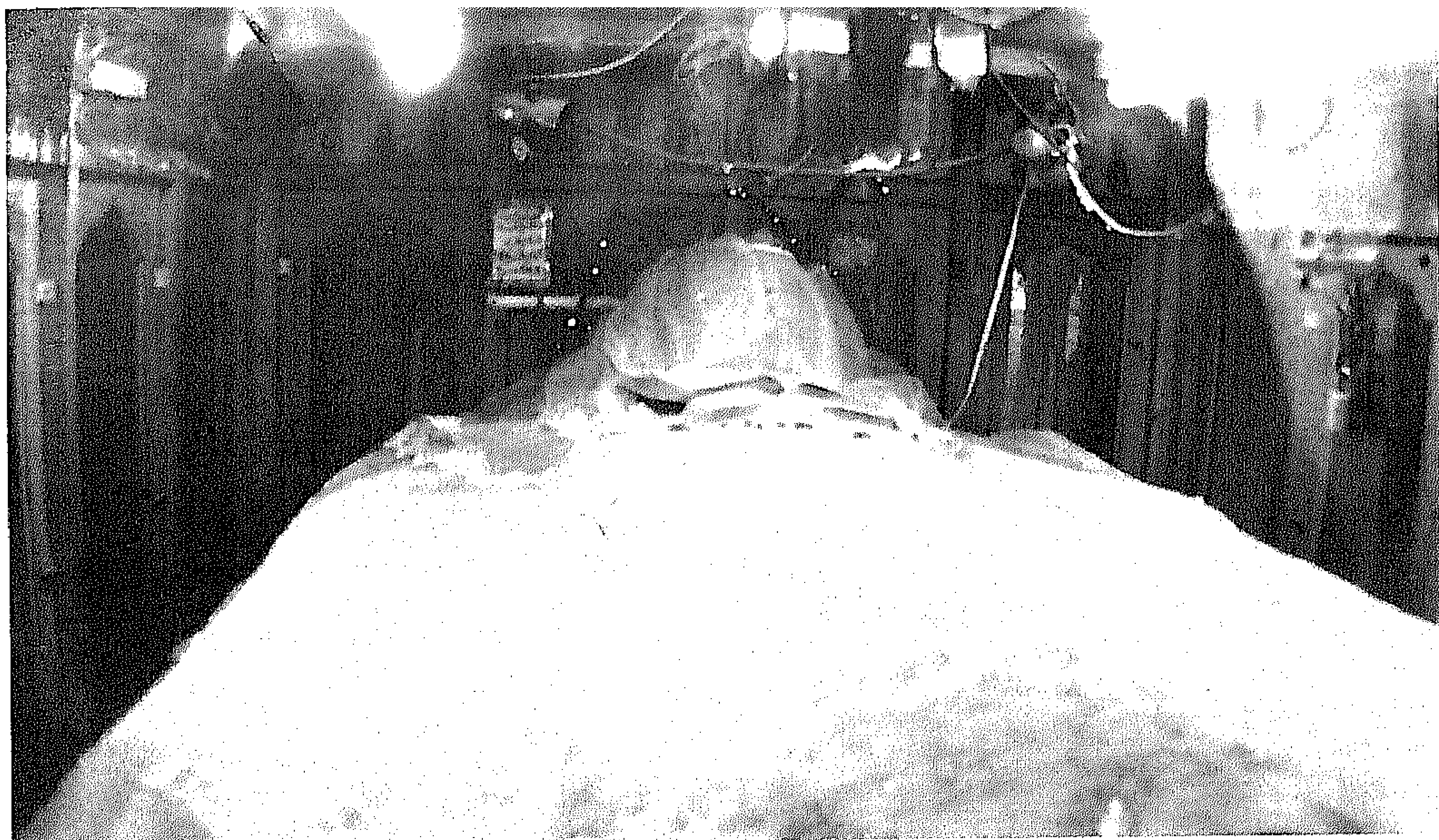




صورة من الخارج لمسجد الامام
الشافعى رضى الله عنه وتظهر
مئذنة متميزة



مسجد السيدة رقية من الخارج



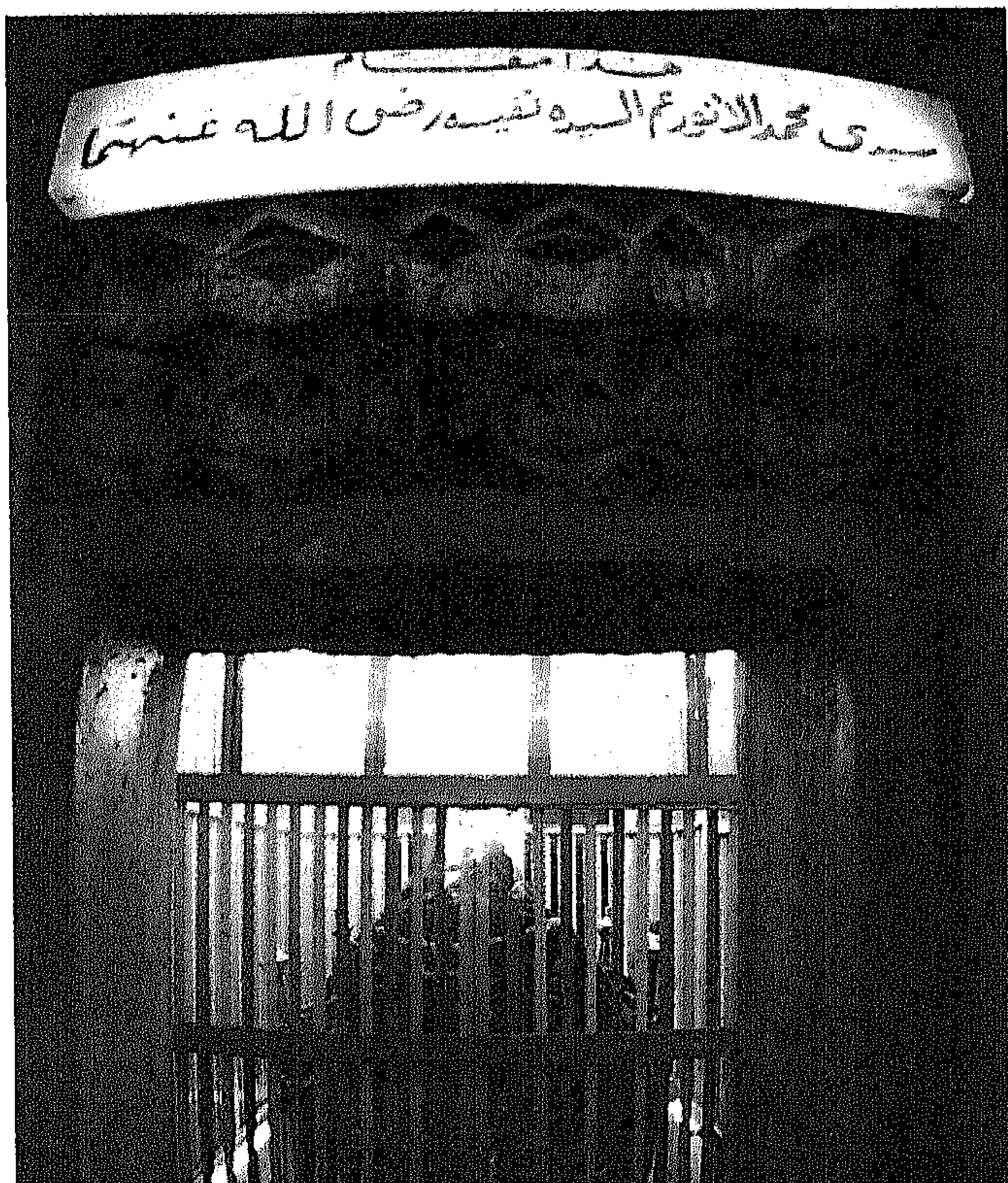
صورة تفصيلية لمقام السيدة عاتكة من الداخل

مقام السيدة عاتكة

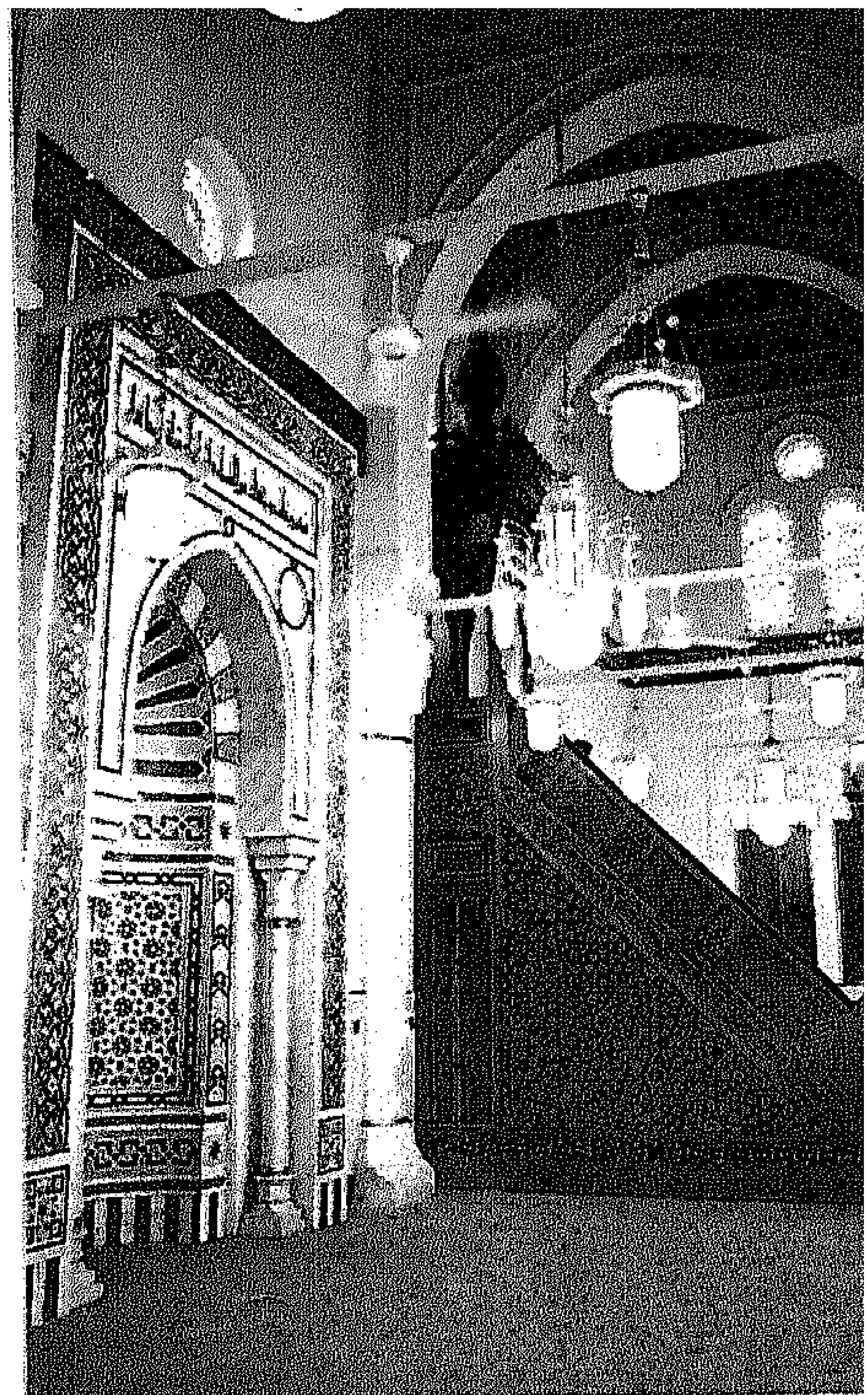




مقام سيدى محمد الأنور من الخارج



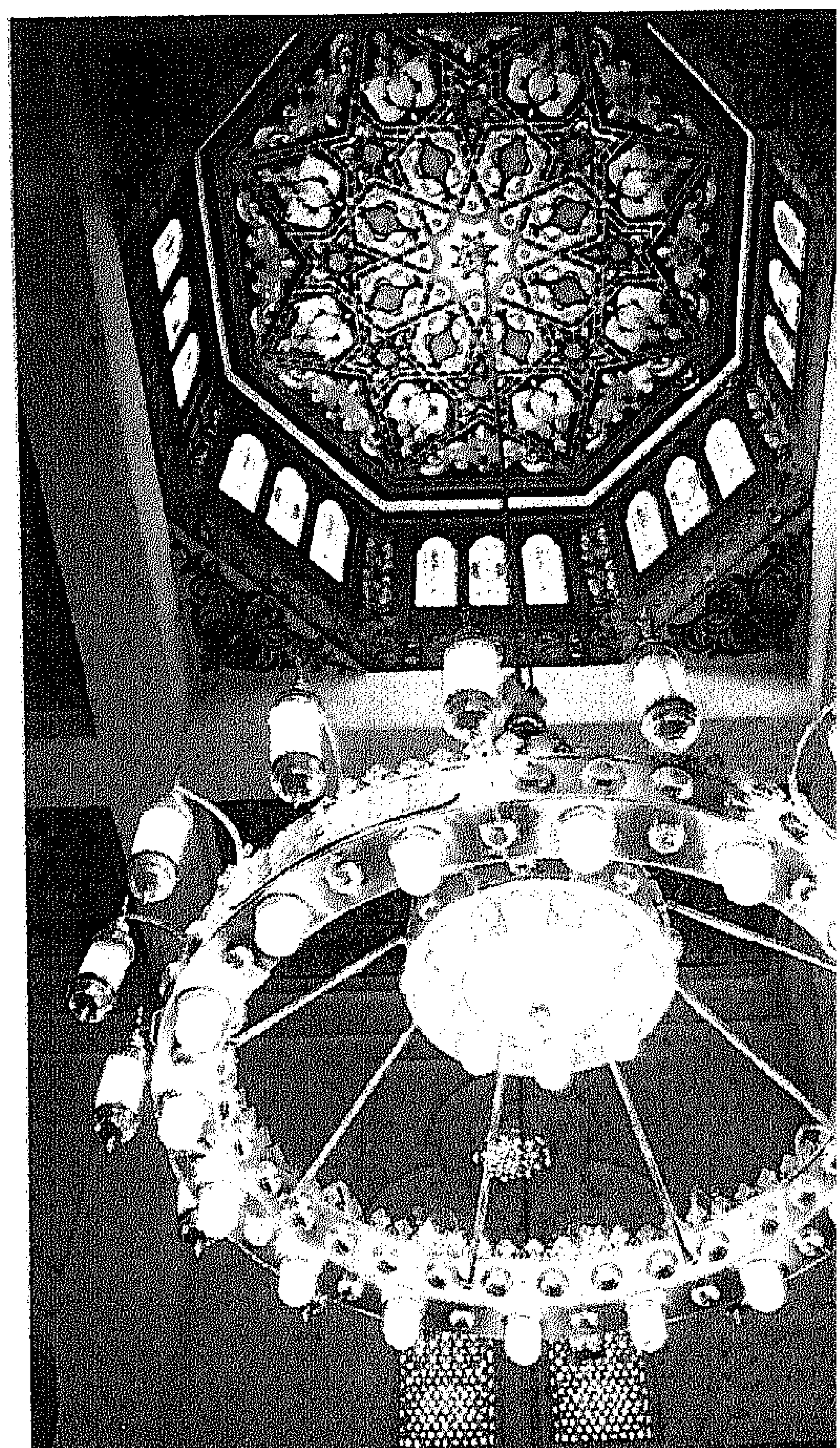
صورة لمقام سيدى محمد الأنور من الداخل

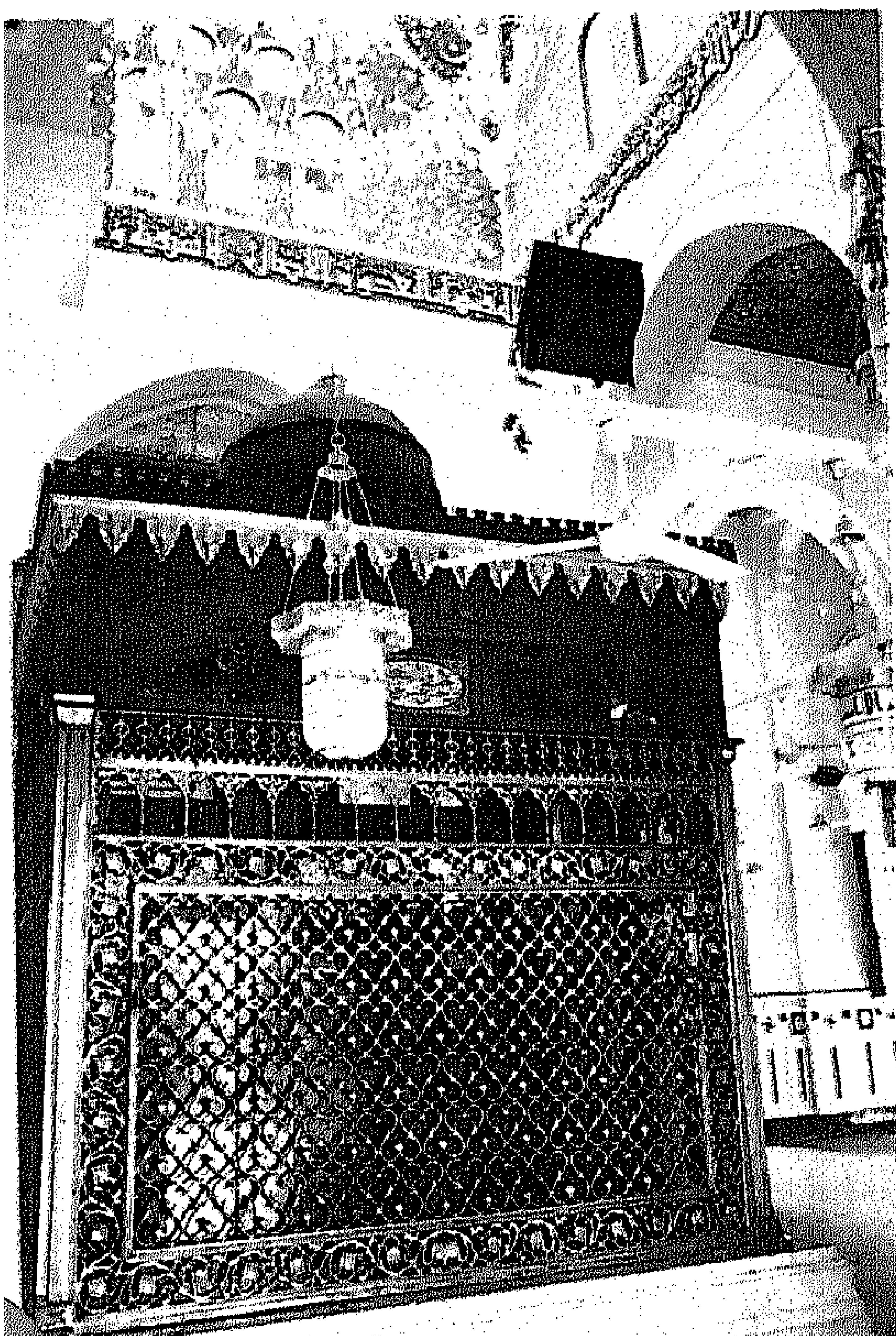


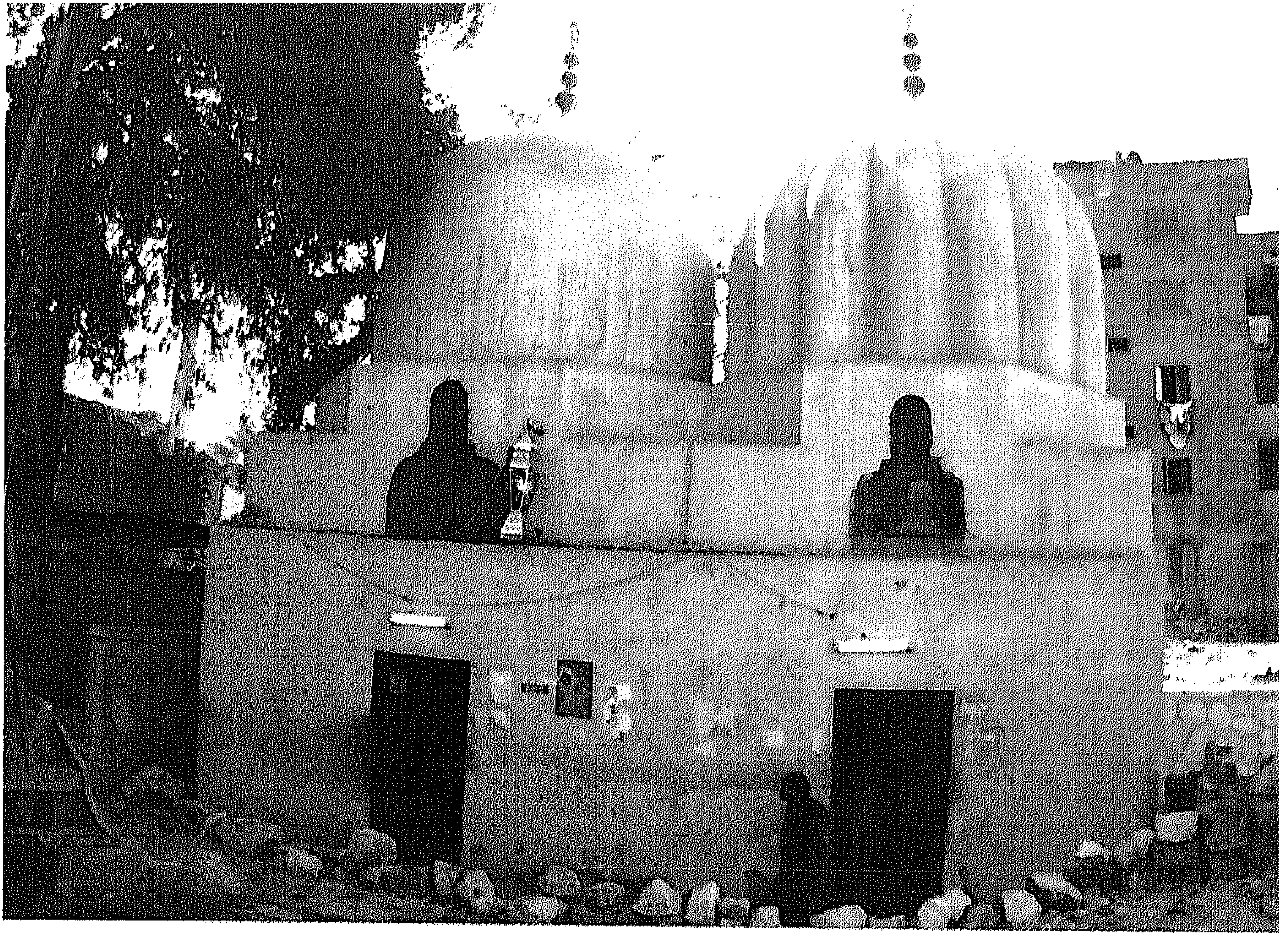
رة للمبنى ومحراب مسجد سيدى على زين العابدين



مقام سيدى على زين العابدين





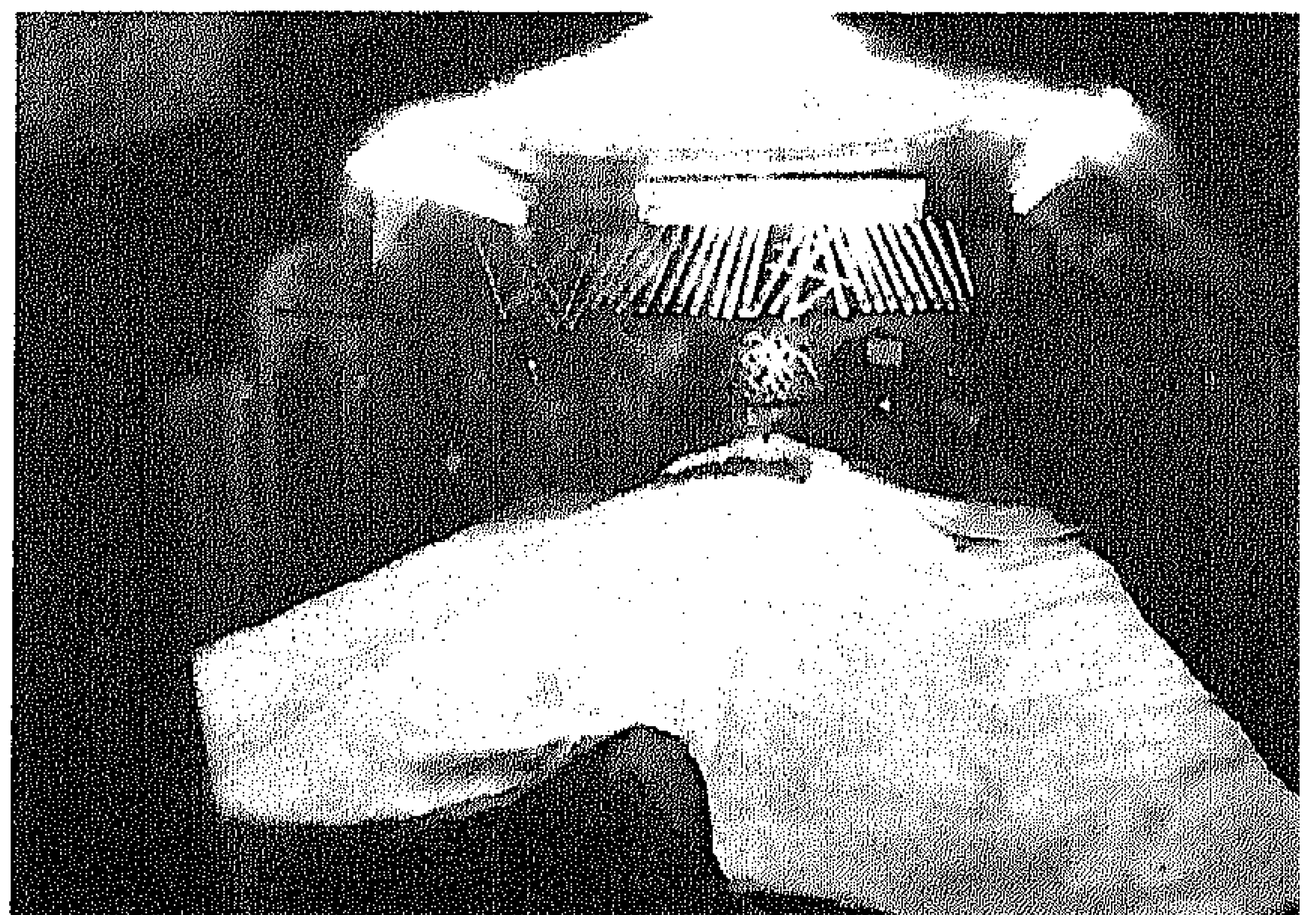


مقام سيدى على الجعفرى والسيدة عاتكة من الخارج



مقام سيدى على الجعفرى وتظهر فيه
بوابة المقام والمقام من الداخل

مقام سيدى على الجعفرى من الداخل



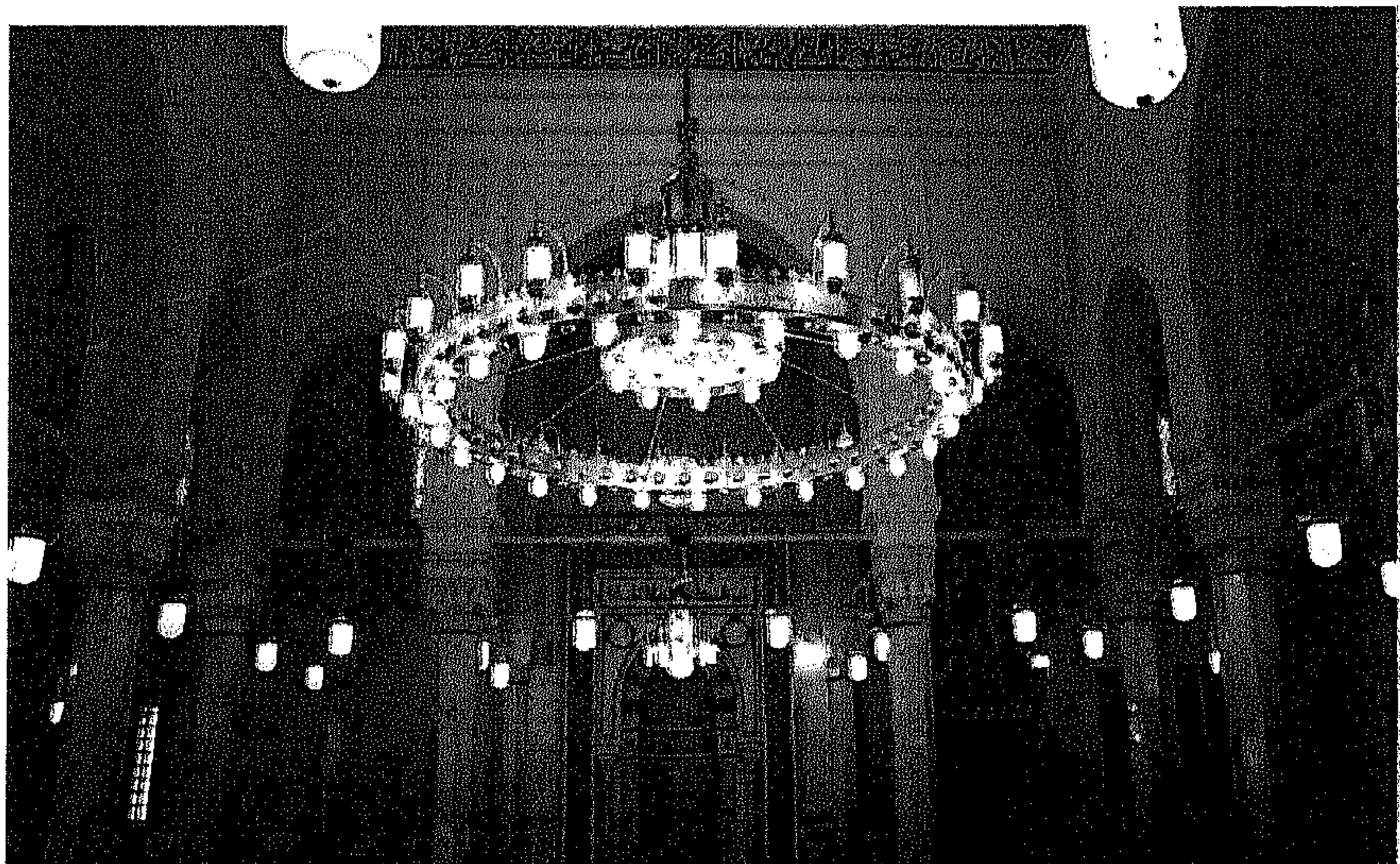
صورة من الداخل لمسجد فاطمة النبوية ويظهر المبنى والمحراب

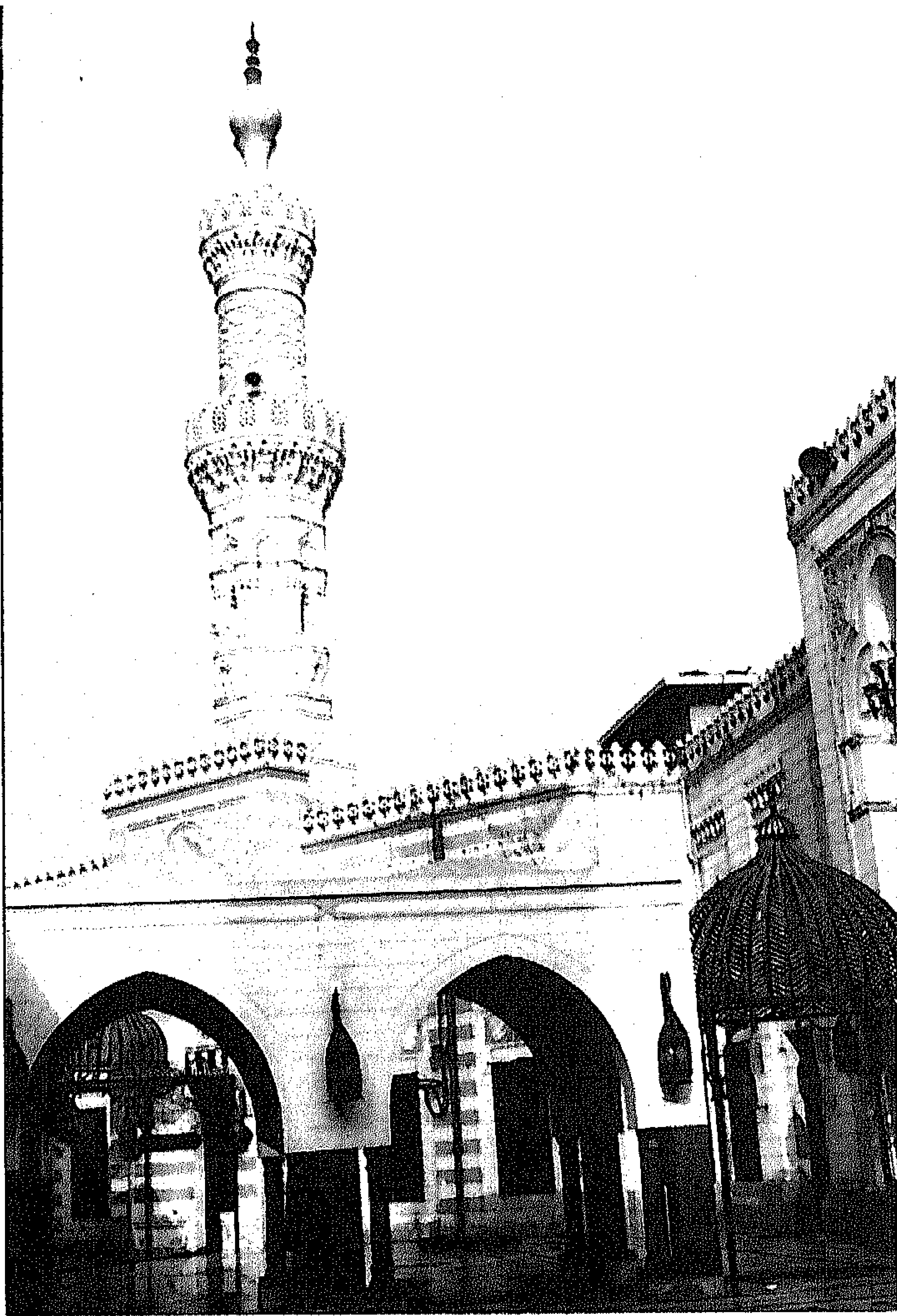




مدخل مسجد على زين العابدين

وهى من أجمل المداخل بزخرفتها الفريدة



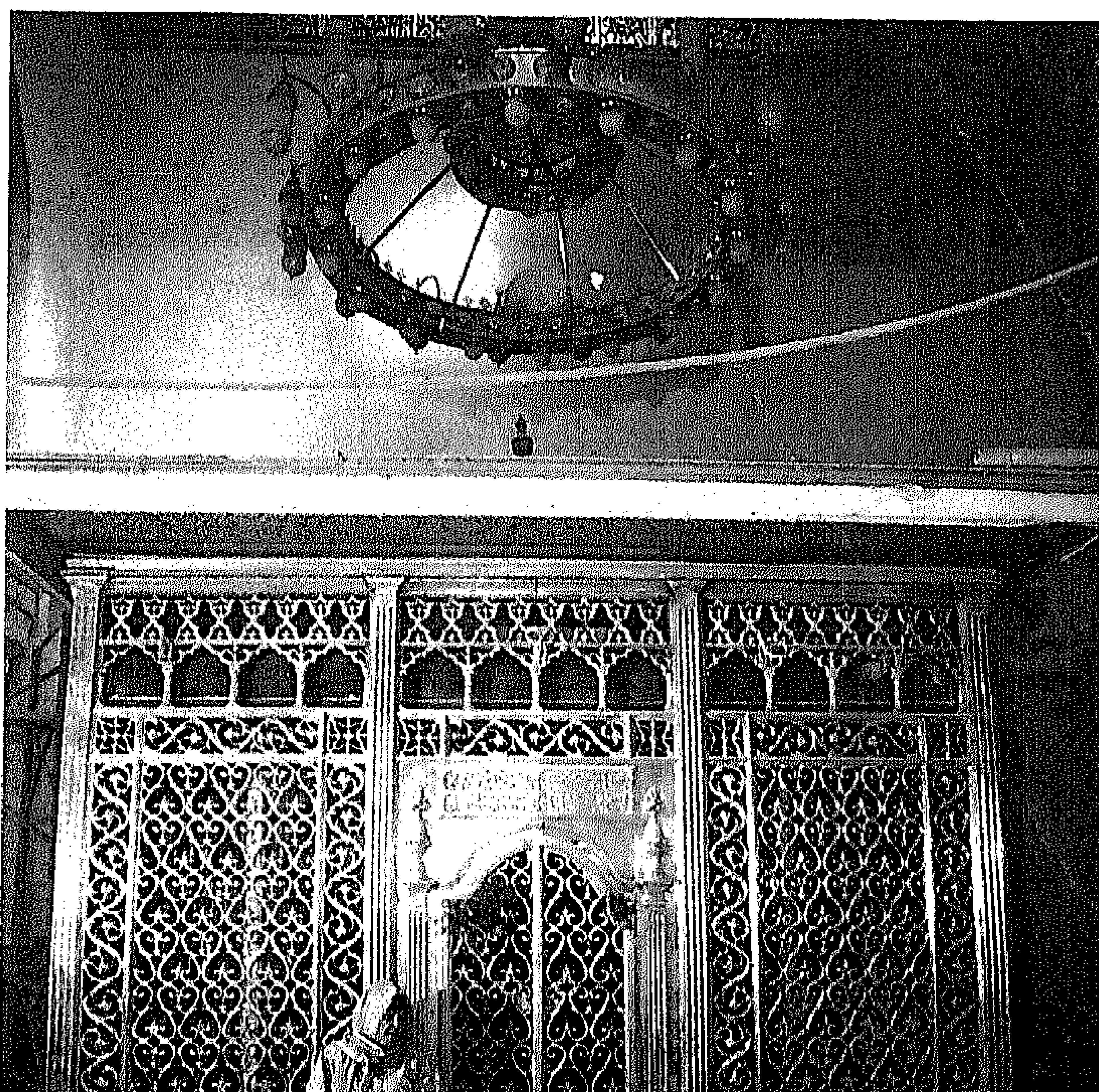




مسجد السيدة نفيسة من الخارج

مقام السيدة فاطمة النبويةمن الخارج

مقام السيدة فاطمة النبوية



في رحاب آل البيت



هذا الكتاب يعد دراسة خاصة لتاريخ آل البيت فى مصر وهى دراسة حضارية ثقافية تكشف الكثير من الجوانب التى نتناساها فى شخصية المصريين . ولذا فهى دراسة تنظر إلى الأمر من الجانب الدينى وحده أو الأثرى وحده ولكنها وقفة مع المصريين الذى يحمل تاريخهم الكثير والكثير .

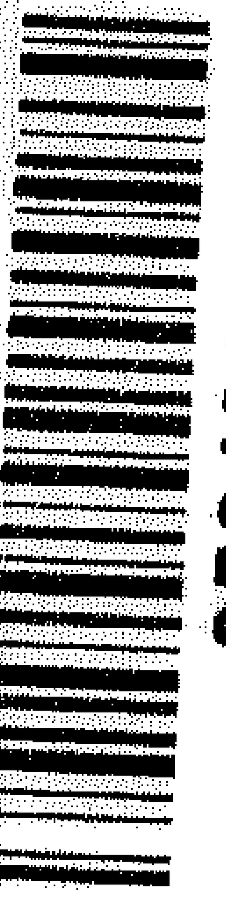
والسؤال هل يمكن أن نعتبر التمسك بالدين والفضيلة بالفعل من الجيوب الداخلية للأمة المصرية وأنها الجزء الأوضح فى النسيج الاجتماعى والثقافى والسياسى ؟

فها هو الحسين يعيش بين المصريين كسيد وشهيد وحبيب والسيدة نفيسة مالكة لقلوب المصريين .... والإمام الشافعى يحمل رسالة حب للطير المسافر وغيرهم من آل البيت .

فالمصريون البسطاء يعيشون بين هذه المساجد ولا تختلف حياتهم فى الكثير من تفاصيلها عن أجدادهم .. فحقيقة إن لمصر وقعها الخاص على النفس وعلى مبدأ السكينة والطمأنينة اللذين عرفها أهل هذه البلاد منذ قديم الزمن ولكن المهم أن يفهم المصريون ماضيهم وكيف كانوا وكيف كانت تلك الأيام ليتعرفوا على ما هو آت .

د . هالة أحمد زكى

- كاتبة صحفية بجريدة الأهرام .
- دكتوراة الفلسفة فى الثقافات المقارنة بين الثقافات المصرية والثقافة الأنجلو ايرلندية .
- ماجستير فى الأدب الأنجلو ايرلندى .
- ليسانس الألسن قسم اللغة الإنجليزية .
- شاركت فى العديد من الندوات والبحوث العلمية وبخاصة فى مجالات الثقافة والحضارة والتراث .
- معنية ومهتمه بالدراسات التاريخية والاثرية .
- صدر لها كتاب , مسيرة الحرية بين الشعبين المصرى والايرلندى



مكتبة مدبولى